392

HARLEQUIN™

روايات أحلام

حب خائف

ريبيكا ونترز

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة

حب خائف

ليس بإمكان هالي لين أن تقع في غرام ذلك الرجل الفرنسي الرائع فنسنت رولاند... فهذا الأمر كان معقداً وصعباً للغاية . فهو سيغير حياتها إلى الأبد...

وكذلك لدى فنسنت أسباب تمنعه من التورط مع هالي...

- آسف يا هالي... آخر ما أريد القيام به هو أن أجرحك. أريد أن أقفل الباب على ذلك الفصل من حياتنا إلى الأبد.

- أنا لا ألومك.

- ولكن هل بإمكانك أن تسامحيني؟

نظرت أليه بعنف فرأى الدموع في عينيها: "ما هذا السؤال؟ ألا تدرك أنني صديقتك؟".

صديقته! إنه في أعماقه يريد أكثر من ذلك بكثير...

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-360-4

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Books S.A

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Books S.A

العلامة التجارية Harlequin وشعار Joey هما ملك شركة Harlequin Books S.A
وهما مستعملان هنا بترخيص منها

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
The french man's Bride
First published in Great Britain 2003
Harlequin Mills & Boon Limited
© Rebecca Winters 2003
Translation © Dar El-Farasha - 2007
ISBN 9953 - 15 - 360 - 4

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومنسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيّقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.romancia.com

ريبيكا وينترز

أم لأربعة أولاد، ومعلمة سابقة.

تركت مهنة التدريس حيث كانت تدرس اللغتين الفرنسية والإسبانية. أصبحت اليوم قادرة على تمضية المزيد من الوقت مع أسرتها، والقيام بالأسفار وكتابة الروايات لـ «ميلز أند بونز». تلك الروايات التي تحبها كثيراً.

يمكنكم زيارة موقعها على الإنترنت:

http: www. rebecca winters-author.com

١ - خاتم مشبوه

تناول فنسنت رولاند منشفة وهو يخرج من تحت الدوش في جناحه في الفندق اللندني، بعد أن صمم على أن يطير إلى باريس بعد غداء العمل عصر هذا اليوم. سيأخذ توأميه في عطلته الأسبوعية هذه إلى البيت في سانت جينز. كان متلهفاً إلى ذلك.

القصر، بدونهما، أشبه بالقبر. فقد كانت السنة المدرسية، بأشهرها التسعة، فراقاً طويلاً رغم الزيارات والمكالمات الهاتفية.

كان اليوم هو الخميس، وكانا يتوقعان مجيئه الجمعة، لكنه سيفاجئهما. سيحتفل معهما الليلة بانتهاء السنة الدراسية ثم يطيرون إلى قصرهم غداً.

سمع، أثناء حلاقته ذقنه، رنين تليفونه الخليوي. ربما أحد ولديه يتصل به، فأسرع إلى الغرفة الأخرى ليجيب. لكن نظرة إلى الرقم المرتسم على شاشة التليفون أنبأته بأن المخابرة هي من سانت جينز، فأجاب، راجياً أن لا يسمع خبراً سيئاً: «نعم؟»

- صباح الخير يا فنسنت.

كانت هذه مدبرة المنزل، وكان صوتها مبتهجاً.

- صباح الخير يا إتفيج. كيف حال الجد موريس؟

- لا تقلق! لقد خرج لتوه مع بوريغارد في «مشوارهما» الصباحي.

شعر لذلك بالاطمئنان. كان جده وكلبه، في غياب التوأمين، قد كرسا وقتهما لبعضهما البعض.

- اتصل بك البنك من هنا في باريس، يريدك السيد جايد أن تتصل به في أسرع وقت ممكن. وهذا هو رقم تليفونه.

السيد جايد؟ لم يتحدث فنسنت إليه منذ فتح حساباً للتوأمين في الخريف الماضي.

دوّن الرقم، ثم قال: «شكراً، إتفيج. أخبري الجد موريس بأنني سأتصل بالرجل من باريس».

عندما انتهت المخابرة، اتصل على الفور بمدير البنك.

- شكراً لاتصالك بهذه السرعة، يا سيد رولاند. كنت قد طلبت مني الاتصال بك إذا دعت الحاجة.

- طبعاً، أية خدمة؟

- أريد أن أخبرك بأن ابنك كتب شيكاً بمبلغ كبير منذ يومين. فرأيت أن أتأكد من موافقتك قبل أن أدفعه له.

- ما مقدار المبلغ؟

- إنه ثمانية آلاف وسبعمئة يورو. لن يبقى شيء في الحساب.

تملكت فنسنت خيبة الأمل وهو يرى أن أولاده لم ينتظروا حضوره قبل أن يصرفوا المبلغ.

- لا بأس، فقد وعدتهما بسيارة إذا هما نجحا في امتحان آخر السنة.

- سيارة؟ لكن هذا التشيك هو باسم متجر مجوهرات «ڤيندوم».

مجوهرات...

وتملكته رجفة. مجرد سماعه هذه الكلمة يذكره بأكثر فترة في حياته سواداً.

- أوقف صرف الشيك حتى أراجع الأمر.

- لا بأس، يا سيدي. هاك رقم التليفون.

ما إن أنهى فنسنت المخابرة، حتى اتصل بمتجر المجوهرات: لم يستطع أن يتصور سبب كل هذا. ذلك أن ولديه كانا على العموم موضع ثقته و...

- «بيجو ڤندوم».

- صباح الخير يا سيدي. هل يمكنني الحديث مع المدير؟

- هو يتكلم.

- أنا فنسنت رولاند.

- آه، نعم، يا سيد رولاند. منذ أيام قام ابنك هنا بشراء خاتم ثمين للمرأة التي سيتزوجها. إنه مغرم بها للغاية وقد أصرّ على أن يكون الخاتم بلون عينيها الفيروزي.

- يا إلهي.

ها هو ذا التاريخ يعيد نفسه! وما أشبه الولد بأبيه...

* * *

- هالي؟

كانت هالي قد خرجت لتوّها من فرع متجر «تاتي» في باريس، حيث كانت تعمل عندما سمعت صوتاً مألوفاً يناديها. عندما التفتت كانت تاكسي تقف بقربها وينفتح باب المقعد الخلفي حيث جلست مونيك رولاند، الفتاة الفرنسية المرحة التي تعلّقت بهالي طوال السنة المدرسية الماضية.

سألتها هالي: «ماذا تفعلين هنا؟».

- أنتظرك. إنه عيد ميلادك وسنحتفل به!

عيد ميلادها؟ لقد نسيت كل شيء عنه. وفوق ذلك كانت هالي قد ودّعت مونيك وأخاها بول نهائياً منذ يومين. كانت هالي واثقة من أن هذا مجرد عذر آخر لكي يجتمعوا، هم الثلاثة، قبل أن يذهب التوأمان إلى موطنهما في منطقة «دوردوين» في فرنسا لقضاء فصل الصيف.

وجود مونيك غير المتوقع خارج مكان عمل هالي، يعني أن المراهقين، يتيمي الأم، ما زالا لا يستطيعان أن يفارقاها لأنهما يشعران باللوعة لذلك.

وفي الحقيقة، كذلك كانت هي، إذ إنها، طوال مدة وجودها في باريس بصفة راهبة غير مكرّسة تخدم في برنامج الدومينيكان الدولي، عرفت وأحبت هذين التوأمين المبكري النضج كأخوين لها. وقضاء مزيد من الوقت معهما سيجعل فراقها لهما أصعب، لكنها مضطرة إلى ذلك. فهي ستدخل الدير في سان دييغو في كاليفورنيا بعد أسبوعين.

- كيف عرفت أن اليوم هو عيد ميلادي، بينما أنا لم أتذكره؟

- عندما كنا نجتاز القنال لنمضي يوماً في إنكلترا، اختلس بول نظرة إلى جواز سفرك. والآن اصعدي إلى التاكسي لأننا نعرقل السير.

فقالت هالي دون أن تتحرك من مكانها: «المفروض أن تكوني الآن في المدرسة حيث يقيمون، كما تعلمين، عشاء الوداع السنوي للمدرسة».

- أنا أفضل أن أكون معك. لا تقلقي فقد حصلت على إذن تغيُّب حتى الساعة الثامنة، هيا بنا، فنحن نضيّع الوقت.

وهنا تمتم سائق النافد فارغ الصبر بشتيمة اضطرت معها هالي إلى الصعود، رغماً عنها، إلى المقعد الخلفي بجانب مونيك. وسرعان ما اندفع السائق بالسيارة كالسهم إلى خضمّ السير...

- إلى أين نحن ذاهبون بالضبط؟

ابتسمت مونيك بمكر: «هذه هي المفاجأة».

- مفاجأة أخرى؟

كانت هناك مفاجآت كثيرة أثناء التسعة أشهر الماضية ولكن لم يحدث قط أن كان ذلك في تاكسي. دوماً كان ذلك يحدث عادة أثناء سيرهما أو وجودهما في قطار عادي أو قطار تحت الأرض.

- هل المكان بعيد؟

فأجابت مونيك بغموض: «انتظري وسترين!».

- أنظري في عيني واقسمي أن الناظرة منحتك إذناً بالتأخر هذه الليلة.

ألقت مونيك برأسها إلى الخلف بازدراء، فقالت هالي: «هذا ما ظننته. أنت لا تخرقين القوانين فقط بل أيضاً ستكلفك أجرة التاكسي أكثر مما تتحمله ميزانيتك. سأخرج من التاكسي عند مفترق الطرق التالي».

فصرخت مونيك: «كلا، لا يمكنك القيام بذلك وإلا أفسدت كل شيء».

نبرة معينة في صوت مونيك أنبأتها بأن التوأمين قد خططا لهذا الأمر منذ فترة طويلة.

- أنت تعلمين أنني لن أفسد مفاجأتك، لكنني أكره أن أرى كلاً منكما يتعرض للمشاكل في آخر ليلة لكما في المدرسة.

- لقد نجحت في شهادتي النهائية بمستوى مرتفع جداً، هذا إلى أن الناظرة لن تجرؤ على أن تعرضني لمشكلة مع بابا.

- وما الذي يمنعها؟

- حتى الآن، قاوم أبي محاولاتها لإغرائه، لكنها لم تذعن للفشل بعد.

وتر هذا التعليق الساخر الخارج من فم هذه الفتاة الرائعة أعصاب هالي، بينما استطردت مونيك قائلة: «لا تبدي هذه الصدمة. كنت أخبرتك من قبل بأن كل النساء يرين أبي جذاباً لا يمكن مقاومته سواءً مع المال أم بدونه».

وبينما كانت هالي تستوعب ما سمعته عن الناظرة، لاحظت أنهما وصلا إلى المنطقة السادسة عشرة المعروفة بأنها من أكثر مناطق السكن رقياً وأهمية في باريس.

سارت التاكسي في «شارع دي باسي» بمتاجره الكثيرة، ثم انعطفت إلى شارع آخر لتتوقف أخيراً أمام مبنى للشقق السكنية. وكان هذا مثالاً بديعاً للهندسة المعروفة باسم «فان دي سيكل»، حيث لا يتمكن من الإقامة هنا سوى فاحشي الثراء مثل والد مونيك.

نزلت الفتاتان من التاكسي ودخلتا بهو المبنى الأنيق حيث استقلتا المصعد الذي صعد بهما إلى الطابق الثالث لتخرجا منه إلى شقة فخمة ذات غرف مترفة. وكان أثاثها من روائع الطراز التراثي، ومع ذلك كان تنظيمها وتناسبها بالغي التأثير في النفس.

توجهت مونيك إلى الباب المؤدي إلى الشرفة، ثم هتفت وهي تمنح هالي ابتسامة مرحة: «آه، إنه مشهد غابة بولونيا الذي تحبينه».

باريس في الربيع، كان المشهد رائعاً. لكن هالي لم تستطع التركيز عليه، فهي كثيراً ما تتحفظ على قضاء مزيد من الوقت مع التوأمين.

- هل يعلم أبوك بهذا؟

– أوه، . . . إنه، لمعلوماتك الخاصة، في لندن في عمل ولن يعود قبل عصر الغد. وقد منحنا أنا وبول الإذن لاستعمال الشقة في المناسبات الخاصة. وعيد ميلادك الخامس والعشرين هو حدث هام.

رغم أن هالي لم تتعرف قط إلى فنسنت رولاند، إلا أنها كانت معجبة به سراً. لقد قام بدور ممتاز في تربيتهما بغياب الأم، فهما لا يدخنان أو يتعاطيان المخدرات أو يسرفان في تناول الكحول. والإثنان تلميذان غير عاديين، يتألقان ذكاء وسحراً. إنهما، في رأي هالي، رائعان للغاية. وهو يستحق كل تكريم لأبوّته الممتازة.

أما ما لم تستطع فهمه فهو السبب الذي جعله يرسلهما إلى مدرسة داخلية، وكيف استطاع أن يحتمل فراقهما. أما بالنسبة إلى التوأمين فقد كانا شغوفين به. وكانت هالي تعلم أنهما يعيشان على زياراته لهما واتصالاته التليفونية.

– أنا أكره أن أراكما تستغلان كرم أبيكما لأجلي.

– نحن لا نفعل ذلك أبداً ولكنك، كما سبق وقلت لك، تقلقين لأجلنا أكثر من اللزوم، إننا سنمكث هنا ساعة واحدة فقط. لا تكوني مزعجة كسجادة مبتلة. . . ؟ أهكذا يقال؟

وضربت الأرض بقدمها بفروغ صبر.

– إذا كنت تريدين أن تظهري عصرية، حاولي أن تقولي: «لا تكوني مسببة للألم بهذا الشكل».

وغرقت الفتاتان في الضحك.

كانتا غير متناسبتين في الحجم، فقد كانت هالي تزيد مونيك بعشرة سنتيمترات طولاً.

كان شعر الفتاة الفرنسية مقصوصاً على شكل خصلات بنية قصيرة تحيط بوجهها. أما شعر هالي الأشقر الذي يبلغ ذقنها طولاً فقد كان مصففاً بطراز يجعله يبدو مشعثاً. فهو لا يحتاج إلا إلى قليل من العناية. لكن هذا لم يكن الفرق الوحيد بينهما. تلبس هالي دوماً أرخص تنّورة وبلوزة تجدها في

السلال التي تحتوي على الملابس الرخيصة في متجر «تاتي». أما مونيك فترتدي أفخر الملابس الإيطالية التصميم عندما تكون خارج المدرسة، وبهذا الشكل كانتا تخرجان معاً، إلى «تشارترز» أو «جبل سانت ميشيل» لزيارة الكنيسة المشهورة.

– مرحباً بكما.

قابلهما بول، توأم دومينيك على الشرفة وقبّلهما على الوجنات. كان بجمال أخته مع قامة تبلغ ست أقدام، وكان التوأمان بالغي الأناقة. كان يلبس الآن قميصاً رياضياً وبنطلون جينز. بدا واضحاً أنه سيكون بعد ثماني أو عشر سنوات، رجلاً جذاباً للغاية. وكان، مع أخته، يتصرفان هنا وكأنهما صاحبي الشقة. وبما كانت هالي تصرفت بحرص بالغ، لكنها تعلم أن التوأمين تعلّما في أرقى المدارس الخاصة ويلتزمان بقواعد صارمة، ولم تشأ أن تكون سبباً في انحرافهما عنها.

– الحمد لله لوصولك، يا بول. إن هالي تظن أنه ما كان ينبغي أن نكون هنا. إنها مستعدة للهرب من القفص.

قالت هذا لأخيها، فعلّقت هالي على الفور: «وهذا تعبير آخر عليك أن تهجريه، إذا شئت أن تتحسن لغتك الإنكليزية. سأشتري لك آخر كتاب حول مصطلحات اللغة. ولكن السوء الحظ، عندما تحفظينها عن ظهر قلب، كل تلك الاصطلاحات تكون قد أصبحت، هي أيضاً، قديمة الطراز».

فضحك بول: «أنت هنا الآن ولن ندعك تذهبين قبل أن نحتفل بعيد ميلادك. تعالي معي.».

تبعتاه إلى غرفة الطعام حيث ملأ ثلاثة كؤوس من العصير.

رفع رأسه: «عسى أن يكون عيد ميلادك هذا هو الأسعد في حياتك!».

وتقارعت الكؤوس.

لقد نظّما هذه الحفلة الصغيرة على شرفها. وتأثرت وهي تدرك مبلغ ما تكلفاه من مشاق لذلك.

إنها ستترك لهما، قبل أن تغادر باريس، رسالة أخيرة تودعهما فيها وتتمنى لهما فيها حياة سعيدة. فلماذا لا تستمتع بهذه اللحظة غير المتوقعة من الصداقة الحميمة ما داموا معاً؟

اعتذرت مونيك لتغيب عن الغرفة لحظة، ثم عادت تحمل طرداً ملفوفاً لا بد أن بول أحضره معه.

وضعت هالي كأسها على المائدة لتتمكن من فتح الطرد. كان يحتوي على وشاح رائع الجمال من الشيفون بألوان القهوة والحليب مع اللون الأبيض.

- سيبدو هذا جميلاً مع تنورتك البنية اللون.

فقالت وقد خنقتها المشاعر: «إنه جميل، يا مونيك. ولكن ما كان عليك أن تكلفي نفسك».

وربطت الوشاح حول عنقها لكي ترى كيف يبدو عليها.

- كنت أريد أن أهديك أشياء أكثر بكثير، ولكنني كنت أعلم أنك لن تقبليها. يمكنك، على الأقل، أن تلبسي هذا الوشاح أثناء الوقت الباقي لك في العمل في متجر تاتي.

- سأحتفظ دوماً بذكريات هذا اليوم.

قالت هالي ذلك لا تريد الجدل، فهي ستعيده إلى مونيك بالبريد مع الرسالة. إنها لا تريدها أن تنفق نقودها على الهدايا.

مالت الفتاة الفرنسية برأسها: «إنه يبدو أنيقاً للغاية مع هذا القميص الأبيض الذي تلبسينه».

- سيبدو أنيقاً مع قمصاني الأخرى أيضاً.

- أعلم هذا، فهي كلها بيضاء.

وفجأة، ضحكوا جميعاً. كان لديهم حس جميل بالفكاهة. كانت هالي تحبهما، وكان شعورها بالفراق مؤلماً للغاية.

ما كان مفروضاً فيها أن تعقد صداقات. لكن ذلك حدث على كل حال. كانت المرة الأولى في «سان دييغو» حيث كانت تسكن مع غابي بيريس قبل قدومها إلى فرنسا.

كانت غابي وهي محامية أرملة مهاجرة، قد تشاركت مع هالي شقة واحدة اختصاراً للتكاليف، قد تزوجت الآن ماكس كالدر، مدير المخابرات المركزية السابق، وأنجبا طفلة سمياها هالي.

- والآن، أرجو المعذرة، سأعود بعد ربع ساعة.

فنظرت هالي إليها بحيرة: «لكننا جئنا لتوّنا، فلماذا تخرجين؟».

فقال بول بابتسامة غريبة: «إنها ذاهبة إلى المتجر المفضل لديها قبل الإقفال. أليس كذلك؟».

- هذا صحيح، سأعود في لحظة.

بعد ذهاب مونيك، التفتت هالي إلى بول: «أنتما تتصرفان بشكل غامض».

- هذا لأنني أريد أن أنفرد بك.

- لماذا؟

- لكي أفعل شيئاً طالما تمنيته.

- وما هو؟

- هذا.

وفي اللحظة التالية أحاط وجهها بيديه وعانقها بقوّة.

تفاجأت كثيراً من تصرفه الغريب. وقررت أن تعتبر هذا إحدى مزحات بول الصغيرة، فقد كان مداعباً فظيعاً أحياناً.

- أوه... إنه العناق الأخير قبل أن أذهب إلى العزلة. جعلت عيد ميلادي هذا خالداً في ذاكرتي.

- كنت أتمنى القيام بهذا منذ وقت طويل. والآن، أغمضي عينيك. لدي شيء آخر لأعطيك إياه.

فقالت بحذر: «أظنك قمت بما يكفي ليوم واحد».

لكنه تجاهل قولها هذا، وبسرعة البرق أمسك بيدها اليسرى ووضع شيئاً معدنياً بارداً في إصبعها.

تلاشت ابتسامتها وهي تلمح الحجر المربع الفيروزي على الذهب

الأصفر. كان وزن الجوهرة ثلاثة قراريط على الأقل! وجعلها صفاء الحجر الكريم ولونه تشهق.

حتى ولو كان زائفاً، لابد أنه كلف مبلغاً كبيراً. مبلغ يفوق قدرات بول المالية ونضجه غير المكتمل. اهداؤها هذا الخاتم في الوقت الذي يعلم فيه ما هي مقدمة عليه، عمل غير منطقي. ما الذي يظنه؟

وهمت بأن تسأله، لكن المشاعر المتدفقة من نظراته جمّدتها ومنعتها من الحديث.

- أتمنى أن يكون عيد ميلادك الخامس والعشرين سعيداً يا جميلتي.

طرفت هالي بعينيها... فقد كان بول جاداً.

أحست بأنه يرتعش. لقد ذهب ذلك الحب المازح والمداعبات البريئة التي كانت تميّز علاقتهما.

منذ متى لديه هذه المشاعر؟

لقد كان بقاؤها مع التوأمين، جزء من خدماتها. ولم تدرك أنه أصبح مفتوناً بها. وإذا كانت هناك دلائل فهي لم تلحظها.

- إنها قطعة مجوهرات رائعة، ولكن عليك أن تعيدها إلى المتجر.

فأمسك بيديها بشدة كيلا تخلعه: «لا تكوني سخيفة! حتى ولو لم تلبسيه، أريدك أن تحتفظي به كي يذكرك بي على الدوام».

- لا يمكنني ذلك، يا بول. إنك تعرف السبب. فالأشياء المادية لا تهمني. عندما أدخل الدير، لن آخذ معي شيئاً.

فنظر إليها متشكّكاً: «أنا معتمد على عدم دخولك الدير. إنني متيّم بك غراماً يا هالي...».

صرخ بذلك بكل ما يحويه غرام المراهقين من حماسة، وغيرة، وتابع يقول: «سأبقى في باريس حتى أقنعك بالقدوم معي إلى بلدي في سانت جينز. أنت لم تخلقي لتكوني راهبة. إنني أرجو أن تكوني زوجتي ذات يوم».

زوجته...؟

وشدّها إليه بقوّة مدهشة مليئة بالمشاعر المحمومة.

ولم تستطع أن تصدّق ذلك. دفعته بصدره وهي تهتف: «بول...».

لكنه كان قوياً للغاية! دعت الله أن يلهمها كيف ترفضه دون أن تؤذي كرامته.

- ما الذي يحدث هنا، بحق الله؟

كان هذا صوتاً رجالياً عميقاً اخترق السكون، فقفز بول مبتعداً عنها وقد توهج وجهه بشعور بالذنب.

أما هالي، التي كان رأسها ما زال يدور لعمق شعور بول نحوها... ذلك الشعور الذي أخفاه طوال تلك المدة... فقد كانت ردة فعلها لهذه المقاطعة أكثر بطئاً. ذلك أنها، طوال الوقت، كانت تعتبره أخاً أصغر لها.

وقال بول بصوت خافت: «بابا... ظننتك في لندن».

- هذا واضح. كان لديّ انطباع سخيف بأن ولديّ قد يستمتعان بعشاء احتفالي معي هذا المساء. ولكن يبدو أن ذوقك اندفع إلى شيء أقوى بكثير.

لم يكن ثمة شك في أن فنسنت رولاند قد دخل إلى غرفة الطعام، وذلك من لهجته اللاذعة وهو يرى ابنه ذا الثامنة عشرة يعانق امرأة غريبة، في مشهد احتفالي غريب.

وهزت هالي رأسها. كانت الشواهد تدينها تماماً... ولا يمكن أن تكون أسوأ من ذلك بالنسبة إلى بول. ومع هذا لم تكن مدهوشة حقاً. كان يجب ألا تتجاهل غريزتها بأن التوأمين أخطآ في الهرب من المدرسة ليحضراها إلى شقة والدهما.

كما أن هالي لم تكن تتوقع أن يأتي الرجل بنفسه من إنكلترا في نفس اللحظة التي اختارها ابنه لكي يكشف لها عن مشاعره. ودفعها الفضول إلى النظر ناحية السيد رولاند، فوجدت نفسها تحدّق إليه.

كان التوأمان قد أرياها صورة أبيهما، لكن الكاميرا لم تلتقط جاذبيته المثيرة المشوّشة للذهن. لم تكن تظن أن هناك من هو أكثر جاذبية من عريسها الذي مات في حادث سقوط الطائرة الفظيع ذاك، منذ سنتين... لكنها كانت مخطئة.

لقد ورث التوأمان شعر أبيهما الأسود وعينيه البنيّتين. لم يكن هناك أثر من براءتهما في عينيه الثاقبتين وهو يشملها بنظراته مقيّماً صفاتها الأنثوية بلحظة طويلة جادة.

كانت هالي موضع انتباه الرجال منذ مراهقتها وقد اعتادت على ذلك. وعلى كل حال، بدا لها أن هذا الرجل كان يتطلّع إلى شيء آخر غير جمال قوامها. كان الوشاح الثمين يبدو في غير مكانه مع التنورة البنية والبلوزة البيضاء الرخيصتين.

تقدم إلى داخل الغرفة ويداه السمراوان على وركيه. كان يلبس كنزة باهتة الزرقة وبنطلون جينز يبرز قوة ساقيه. وبعثت رجولته المتدفقة الاضطراب في حواسها. ومع اقترابه، استطاعت أن تراه يتجاوز بول طولاً بعدة إنشات. فمع حاجبه الأسود باستياء: ألا يفترض بك الاحتفال بنهاية السنة المدرسية مع زملائك؟».

فتنحنح بول: «عيد ميلاد هالي أهم كثيراً من وجودي مع مجموعة من الفتيات. أبي، هل لي أن أقدم إليك صديقتي، الآنسة لين؟ تعارفنا في الخريف الماضي».

تغضنت ملامحه وهو يعود إلى تفحص وجهها مرة أخرى. ثم انحدرت نظراته إلى أن استقرت على الحجر الفيروزي في إصبعها: «الآنسة لين».

قال هذا بفتور مهين وكأنه لا يحتمل حتى الاعتراف بوجودها... تملكها الاضطراب. من المؤكد أن رؤيته لإبنه يعانقها لا يجرّ كل هذا الحقد.

قالت تريد تهدئة الوضع: «أهلاً وسهلاً يا سيد رولاند. أولادك يتغنون دوماً بمدحك، وأنا مسرورة بالتعرف إليك».

- هل يمكننا الذهاب إلى غرفة الجلوس لحظة يا بابا؟

- لا، لا يمكننا ذلك..

كان غضبه الهائج الكامن وراء هدوئه هذا، ظاهراً، وعيناه ما زالتا مركزتين على الخاتم في إصبعها: «ما دامت الآنسة لين بهذه الأهمية في

حياتك، لا أرى سبباً يبعدها عن هذا الحديث».

- حبي لها هو صحيح، فهي تعني لي كل شيء، وسأتزوجها في الوقت المناسب.

- بول!

إنها ترفضه تماماً وليس فقط لأنها تكبره سناً وخبرة.

- كم هذا ممتع... لقد فهمت الآن السبب الذي يجعلها تلبس جوهرة جعلك ثمنها تسحب من البنك بقية رصيدك للسنة المدرسية!

فتأوهت هالي. كان بول يستعرض ثراءه أمامها بسبب افتتانه بها. هذا ما جعله يرتكب هذه الغلطة الحمقاء المكلفة للغاية: «دوماً سأتذكر أنك أعطيتني هذا الخاتم، يا بول، لكنك تعرف الأسباب التي تمنعني من قبوله».

كانت تريد أن تحافظ على شعوره، لكنه تجاوز الحد ما جعله بحاجة إلى هزة توقظه. وخلعت الخاتم من إصبعها دون تردد ووضعته على المائدة.

فشحب وجهه.

قال أبوه: «فات الوقت على إقناعي بأنك لم تكوني تنوين الاحتفاظ به، يا آنسة لين».

فاستدار بول إليه: «أنت غير متفهم. يمكنني أن أشرح الأمر».

- أراهن على ذلك، كما أن بإمكانك أن تخبرني كم من المرات أحضرتها إلى شقتي منذ الخريف الماضي.

فقالت له هالي بهدوء: «لم أحضر إلى هنا قط قبل الآن».

حتى هذه اللحظة، لم تكن اهتمت بنفسها، بل كان غضبه البالغ من بول هو الذي أقلقها. كان لدى السيد رولاند كل الحق في أن يستاء. لكنه كان يستشيط غيظاً. ولم تكن لتحتمل مدى الضرر الذي قد يحدث إن أذل بول أمامها.

فابتسم لها ساخراً: «طبعاً لم تفعلي ذلك. تماماً كما أنك لم تكوني تعلمين أن ذلك الحجر الكريم كان حقيقياً. ولا أدري ما الذي استطعت استخلاصه بالحيلة منه غير هذا».

نظرت إليه بعينين لا تطرفان: «يسعدني أن أتحدث معك عن هذا الأمر، لكنني أرى أن تتحدث مع ابنك على انفراد أولاً».

لم تصل ابتسامته الباردة إلى عينيه: «لست مهتماً بما ترينه، يا آنسة لين. كلما تحدثت أنت أكثر، كلما ازداد اقتناعي بأن الخاتم هو جزء من مشروع واسع للسلب لا تحلم بتنفيذه سوى شابة لها سحرك ووقاحتك».

فصرخ بول: «والآن، انتظر لحظة. ليس لديك الحق في أن تتحدث إلى هالي بهذا...».

- كفى! أتظنني معتوهاً كلياً؟ إياك أن تصرخ بي بهذا الشكل مرة أخرى، ولا تتحدث معي عن الحقوق. لقد فقدت كل حق لك في ذلك منذ أسأت استعمال ثقتي.

وإذا بصوت مونيك يتعالى من الردهة: «هذه أنا قادمة. لقد عدت وانتهى دورك يا بول، إنني أنبهك في حال كنت أقطع عليكما أي شيء...».

أنهى صوت مونيك هذا الجدل العقيم. لقد ساعدت هذه القردة الصغيرة أخاها وشجعته لكي ينفرد بها. لقد عرفت الآن كل شيء.

لم تستطع أن تفهم كيف فكر التوأمان في أن بإمكانها أن تهتم عاطفياً ببول الذي يصغرها بسنوات عديدة وأن يمضيا كل هذه الأشهر معها وما زالا لا يقدران التزامها بالرسالة التي اختارت أن تتبعها.

كلما فكرت في ذلك، كلما افترضت أن الأمر هو قضية فتى وفتاة مثاليين يؤمنان بما يريدان أن يؤمنا به.

هما من أخبرا هالي أن أمهما توفيت أثناء ولادتها لهما. وقد بذل أبوهما مجهوداً كبيراً ليكون أباً صالحاً.

- أهكذا... تعود الابنة المبذرة إلى مشهد الجريمة محمّلة بملابس أكثر مما ينبغي.

في اللحظة التي دخلت فيها مونيك غرفة الطعام، بدا الارتباك على وجهها، وجمدت أمام أبيها متمتمة وقد صدمها وجوده: «بابا... ظننتك

لن تكون هنا قبل الغد».

- هذا واضح، وإلا كان هذا الاحتفال السري البسيط ليمر دون أن أكتشف أمركم. تسعة أشهر والآنسة لين تملك «شيكاً على بياض» لإستغلال ولديّ وتحريضهما لكي يتخليا لها عما لديهما من مال ناسين أنني أنا الذي زودتهما به. ويدهشني أنه ما زال لديك من النقود ما يمكّنك من شراء أي شيء.

اختطف العلبة من تحت إبط مونيك وفتحها فانزلق منها ثوب «كوكتيل» أحمر وهاج: «هل هذا هدية أخرى للآنسة لين المحرومة المعدمة؟»

لم تكن هالي تظن أن تنورتها وبلوزتها يبدوان إلى هذا الحد من السوء. بينما كان الأب يتابع قائلاً: «يبدو أنها استفادت منكما تماماً... هذا الوشاح الثمين، مثلاً. وهذا الثوب الراقي التفصيل، ثم خاتم بقيمة تسعة آلاف دولار.

تسعة آلاف دولار...

واشتبكت عيناها الذاهلتان بعينيه. وتوترت شفتاه وهو يقول: «إنها غنيمة جيدة تماماً بالنسبة إلى عمل يوم واحد، يا آنسة لين».

اغرورقت عينا مونيك بالدموع وهي تشهق قائلة: «بابا... ماذا حدث؟ إنك مخطىء في كل شيء، يا أبي».

فانتصب في وقفته: «يبدو أن ابنتي وابني مخدوعان. أنت تعرفين معنى هذه الكلمة أليس كذلك؟ فالخداع هو أن يغش الشخص أناساً آخرين بعد كسب ثقتهم».

وأخذ صدره يعلو ويهبط، فصرخت مونيك: «هالي تخدعنا؟ هذا مستحيل! هذه حفلة عيد مولدها وقد جعلناها مفاجأة لها دون أن تعلم عنها شيئاً! كانت، في الواقع، خائفة علينا جداً من أن نقع في مشكلة، حتى أنها رفضت في البداية القدوم معي في التاكسي».

- لكنها جاءت. ومنذ لحظات، كانت تلبس خاتماً يساوي ثروة، وكانت تشكر أخاك بتلك الطريقة الأنثوية المعروفة منذ القدم والتي تقود

الرجل إلى خرابه.

صدم هذا الموقف التوأمين اللذين كانا يتخذان أباهما مثلاً أعلى..

كان هذا الرجل ناجحاً في أعماله، بالنسبة إلى أسرته. لكن هذا الشخص العنيد الواقف بالقرب منها لم يكن يشبه ذلك الرجل المثالي الذي في خيالها إلا قليلاً.

قال وهو يصرف بأسنانه: «ألا تدركان أنها تخدعكما وتعطيني سبباً قوياً لأشك في نجاح تربيتي الأبوية لكما؟».

سمعت هالي العذاب في صوته فقط، وبالرغم من غضبه، كان تأثير ذلك عليها قوياً.

– ستذهبان، أنتما الإثنين، الآن إلى حيث تستقلان تاكسي تعيدكما إلى المدرسة، وسأوافيكما إلى هناك بعد حديث قصير مع الآنسة لين.

مزيج الألم والمرارة في عيني بول سبّب لهالي الخوف على مصير العلاقة بينه وبين أبيه.

كان غضب بول مخيفاً أكثر من غضب أبيه، ذلك لأنه صغير السن حساس للغاية. وقد فوجيء بالجرم المشهود في أدق لحظة في حياته وأكثرها زعزعة وعدم ثقة. وسيستغرق منه الصفح عن أبيه وقتاً طويلاً.

وهبط قلبها عندما اندفع كالعاصفة من غرفة الطعام، فتركه أبوه يذهب.

حملقت مونيك في أبيها وكأنها لم تره قط من قبل. ثم انتقلت نظراتها المجروحة إلى هالي وحركت شفتيها بكلمة (آسفة) قبل أن تسرع خلف أخيها.

وفي اللحظة التي سمعت هالي فيها صوت باب المصعد ينغلق، قالت: «أرجوك، لا تدعهما يخرجان بهذه الطريقة. اركض خلفهما بسرعة واعتذر منهما قبل أن يحدث للعلاقة بينكم مزيداً من الضرر».

٢ - أشباح الماضي

لمعت عينا فنسنت رولاند بالحقد: «فات الوقت قليلاً على الحديث عن الضرر خصوصاً إذا كنت (حبلى) منه، لكنني لا أظن بول عرف سرك هذا وإلا لما خرج بدونك قط».

– أووووه... ألم يحدثك ولداك عني؟ حتى ولا مرة؟

بدا وكأنه لم يعد يحتمل شيئاً وهو يجيب: «لم أعرف بوجودك في هذا العالم حتى رأيت ابني يعانقك بحميمية كافية لإقناعي بأنه ابتعد تماماً عن حدود التعقل. وأنا أحذرك الآن، يا آنسة لين... ليس بإمكان امرأة أن توقع ابني في شرك زواج منحرف وتقيده بها بقية حياته. فإذا كنت حبلى، لن تسنح لك فرصة أبداً لابتزازه. قبل الصباح ستكونين في طائرة تأخذك إلى حيث جئت مع مبلغ من المال يرضي طمعك الهائل».

كانت هالي تشك بمعرفة الولدين لهذه الناحية من شخصية أبيهما. ربما هو أكثر ثراء مما تتصور. من الطبيعي أن يتأكد من عدم تعرض ولديه للسرقة أو الأذى. أما أن يفترض أنها حبلى ويتهمها بالاحتيال على ابنه دون أن يمنحها أو يمنح ابنه فرصة للتفسير، كل هذا ملأها غضباً.

– أنا لست حبلى. لكنني لو كنت كذلك، هل تطردني، مع علمك بأنني أحمل حفيدك في أحشائي؟ كنت ستحرم بول من أن يحب ولده ويربيه؟

أطلق ضحكة خشنة: «ومن سيعتبره ابن بول أصلاً؟».

طوال هذه الأشهر كانت هالي تحترم، سراً، والد التوأمين، لكنها لم تعد الآن كذلك.

– حذار من أن تقول شيئاً آخر تندم عليه طوال حياتك، يا سيدي. لقد

فاجأنا بول، نحن الإثنين، بهذه الحفلة هذا المساء. أخشى أن تسرعك في الحكم على الأمور قد ألحق ضرراً كبيراً في علاقتك بابنك، ضرر لا يمكن اصلاحه بسهولة. الحقيقة هي أنه لم تكن لدي فكرة عن أن عواطفه تطورت إلى افتتان بي. وذلك يحدث أحياناً من فتيان نحو نساء أكبر سناً. وعلى أي حال، لم أدرك ذلك قبل دقائق من حضورك.

فردّ عليها بحدة واكتئاب، وقد بدا فجأة أكبر سناً: «إنه ليس مجرد افتتان، يا آنسة لين. حقيقة الخاتم وما يتبع ذلك لا يدل على مشاعر عادية. طبعاً، هناك حفلات كوكتيل كثيرة تفتح أعين الشبان وتفقدهم رشدهم. خصوصاً عندما يكون هناك فتيات لعوب مثلك تزوده «بما لا أعرف ما هو».

فرددت كلامه وهي تطوي الوشاح وتضعه على المائدة بجانب الخاتم: «بما لا أدري ما هو؟ هذا تعبير أميركي قديم كان شائعاً منذ سنوات وابنتك تستعمله باستمرار».

اقترب منها ويداه على وركيه مرة أخرى والعبوس يُظلم ملامحه. حتى وهو غاضب، كان من الجاذبية بحيث تملكها الحذر من أن تجد نفسها منجذبة إلى سحره الأخاذ.

- من أنت وماذا تفعلين في باريس؟ وكيف تعرفت إلى ولديّ؟

- أنا امرأة صديقة للتوأمين.

فقال بلهجة لاذعة: «أتتوقعين مني أن أصدق هذا؟»

- نعم، تماماً كما أصدق كل ما تخبرني أنت به. مونيك تشبهك من نواح كثيرة. ولكن عليك أن تكون من الحكمة بحيث تنتبه إلى كلامك، لأنّ سخريتك تضايقها. كانت تظن أن علاقتك بالناظرة لم تسبب لها أية مشكلة. فالمرأة حسب قول ابنتك لا تزال تحاول إغراءك، وعفواً لقلة تهذيبي. وهناك شيء آخر. لا يهمني ولو كنت بثراء قارون! ابنك لم يعمل في كروم العنب طوال السنة المدرسية الأخيرة، ومع هذا تضع في حسابه بالبنك تسعة آلاف دولار وهذا المبلغ أكبر من أن يستطيع فتى ذي نزوات في

الثامنة عشرة من عمره أن يتعامل به بحكمة مهما كانت الأمانة التي كان يتحلى بها حتى الآن.

- هل انتهيت من الكلام تماماً؟

فأجابت متجاهلة لهجة الازدراء في صوته: «لم أنته بعد. دعنا فقط نحمد الله أن تجربته هذه كانت معي لأنني أحب ابنك كما كنت سأحب أخاً أصغر مني، لو كان لي أخ. وأتمنى له الخير. لكنه لم يدرك بعد أنني مجرد جزء من أوهامه، إنه مشوّش قد اختلطت المشاعر في ذهنه. امنحه عدة سنوات تجده قد حدّد كل شيء بوضوح. أتعلم أنه يريد أن يكون مثلك عندما يكبر، واثقاً من نفسه ومرغوباً عند النساء وناجحاً في الحياة؟ لمعلوماتك الخاصة قام بكل شيء على الوجه الأصح طوال الفترة الماضية. لا أحد يفوقه سحراً وشهامة. وفي الواقع، كان قوياً مستبداً للغاية حين أمسك بيدي يضع فيها الخاتم. بعد عشر سنوات أو نحوها، سيكون زوجاً رائعاً لامرأة محظوظة. إن علامات كل ذلك تبدو فيه، ولكنه ما يزال فتياً يُجرح إحساسه بسرعة كما حدث عندما أخجلته أنت أمامي. حتماً عليك أن تعلم مبلغ جرحك له لعدم قبولك التحدث إليه على انفراد. إنني لا أفهمك خصوصاً عندما أراك أحسنت تربية أروع ولدين رأيتهما. وهذا هو السبب الذي منعني من أن أصفعك».

تبع تعليقها الأخير بصمت عميق وهو يتأملها لحظة طويلة ثم قال: «لماذا لا تجيبين على أسئلتي قبل أن أتحرّى عنك؟».

يتحرى عنها؟ هل سيذهب إلى ذلك الحد؟

- لقد سبق أن أخبرك بول عني. اسمي هو هالي لين. بلغت اليوم سن الخامسة والعشرين، وليس الثامنة عشرة! وعندما قرر ولداك أن يفاجئاني بحفلة عيد مولد صغيرة، كنت قد نسيت كل شيء عنه. تعارفنا في الخريف الماضي عندما جاءا إلى متجر «تاتي» حيث أعمل. كانا يريدان شراء هدايا عيد مولد لك، لكنهما كانا ملتزمين بميزانيتهما. طلبت منهما أن يصفاك لي قبل أن أقترح عليهما شراء قفازين ومحفظة نقود.

وشعرت من ومضة في عينيه أنه تذكر تينك الهديتين. وتابعت تقول: «أدهشهما أن يريا أميركية تعمل هناك وشغفا بتجربة لغتهما الإنكليزية معي. وقد توسلا إلي أن أصلح لهما أخطاءهما. سحرني مسلكهما الجاد وشغفهما بك وهما يتبادلان الآراء... كانا يتحدثان عنك طيلة الوقت. وقبل أن يغادرا المتجر، سألاني إذا كان بإمكانهما أن يعودا الأسبوع القادم ليتدربا على الإنكليزية معي مرة أخرى. لم أتوقع عودتهما حقاً، لكنهما عادا بعد يومين وتوسلا إلي أن أتناول الغداء معهما. وكانا أحضرا شطائراً وشراباً فلم أستطع الرفض، وهكذا مشينا نحو كاتدرائية نوتر دام وقمنا بنزهة صغيرة. وقد تحدثا بالإنكليزية بشكل جيد، ثم حدثاني عن الحياة في سانت جينز معك ثم عن جد أبيهما موريس. آه. نعم، والكلب بوريغار... وهكذا أصبحنا، عصر ذلك اليوم، أصدقاء. هذا ما حدث، ومنذ ذلك الحين صرنا متقاربين للغاية. كان ينبغي عليّ أن ألاحظ دلائل افتتان بول بي. لكن هذا لم يحدث، وأظن أن هذا هو السبب في أنهما لم يخبراك عني. لم يكن يجدر بهما إخفاء الأمر، لكنك عاملتهما، الآن، وكأنهما اقترفا خطيئة. لماذا فعلت ذلك؟».

فاقترب منها: «كيف حصلت على وظيفة في متجر «تاتي»؟ إن الحكومة نادراً ما تمنح ترخيصاً بالعمل لأميركيين».

- كان ذلك ترخيصاً استثنائياً في حالتي، ولكن لا تهتم لذلك سأتخلى عن الوظيفة بعد أسبوعين، وأرحل نهائياً. أما بالنسبة لمخاوفك الأخرى، فإنك حللت المشكلة بحضورك إلى باريس لتأخذ ولديك إلى موطنك. إنما أخبرني بشيء واحد. إذا كنت لا تثق بهما، لماذا أرسلتهما إلى مدرسة داخلية؟

لوى شفتيه بضيق، لكنها كانت مصممة على الحصول على جواب: «كان بإمكان التوأمين الذهاب إلى كلية ممتازة في سانت جينز وبذلك يعيشان في بيتهما معك. الحياة تمرّ بسرعة! ألا تعلم أن حب الأبوين، أو أحدهما، أهم بالنسبة إلى الولد من التعلم في مدارس مكلفة؟ إن ولديك يعبدانك، وهما يفتقدانك بشكل هائل، ولهذا يجدّان في الدراسة لكي تفتخر بهما. أنا

أعلم ذلك جيداً لأنني أمضيت ساعات في تعليم ولديك لأجل امتحاناتهما. كما كنا نستكشف أنحاء باريس أيام فراغي من العمل. ولا شك في أن مونيك ابتاعت الثوب الأحمر ذاك لكي ترتديه أمامك في حفلة عيد مولد الجد موريس الشهر القادم. إنها تدعي أن كل امرأة تحلم بك. رغم أنها لم تصارحني بقلقها من أن تستميلك امرأة ذات يوم فتحرمها من عطفك إلا أنني أدركت ذلك. ولهذا أرجوك، إذا كانت هناك امرأة في حياتك لم تخبرهما عنها، فلا تجعلها تكون في القصر حين يعودان إلى سانت جينز. امنحهما اهتمامك كله في البداية، فيدركان أن عواطفك لم تتغير نحوهما. ثم، أرجوك أن تعدني بأن تصلح الأمور بينك وبين بول الليلة، قبل أن يفوت الأوان. إنه يحاول جهده أن يكون رجلاً. إذهب إليه واشرح له سبب استيائك هذا. إن بول بالغ الحساسية والعذوبة، وهو سيتفهم الأمر ويصفح عنك. الوداع نهائياً، وليباركم الله».

بعد ذلك بثوان كان باب المصعد ينغلق، تاركاً صدى كلمات هالي يرن في أنحاء الغرفة.

وبقي فنسنت جامداً مكانه.

لقد سددت إليه طعنة أوقدت المشاعر الملتهبة في أعماق نفسه... وامتلكت الجرأة لتودعه إلى الأبد، داعية الله أن يباركه!

إنه لم ير امرأة مثلها قط. لم يعد مكترثاً بالمزايا الأنثوية التي أعمت ابنه، ولكن أي سحر نفثته هذه الغريبة الغامضة على التوأمين لتثير فيهما مثل هذه المودة الرائعة نحوها؟

تسعة أشهر كانت العلاقة بينهم تنمو وتزدهر دون علمه. وتملكه شعور بالغدر والكرامة المجروحة.

لم يقتنع فنسنت بالعذر الذي قدمه الولدان عن سبب إبقاء علاقتهما بالآنسة لين سراً وهو أنهما أرادا أن يفاجئاه بكفاءتهما باللغة الإنكليزية.

لا شك أن بول وقع في غرامها منذ البداية فأرغم مونيك على إبقاء أمرها سراً. وقد استطاعت أن تتغلغل في عالمهما وقتاً طويلاً، فكم من التفاصيل

الشخصية عن حياته وحياة أولاده قد عرفت؟

رغم أنه لا يعرف شيئاً عمن تكون هذه الأميركية، إلا أنه سيتحرّى عن ذلك.

ذهب إلى مكتبه لكي يبحث عن رقم تليفون متجر «تاتي»، ثم اتصل بالمدير. وبعد انتظار وقت طويل، أجابه شخص ما قائلاً بأن المدير قد خرج ليغيب طوال النهار.

حاول أن يحصل على معلومات عن الآنسة لين، لكن الرجل أجاب بأن عليه أن يتحدث عن ذلك إلى المدير صباح الغد.

ما إن وضع السماعة ليتصل بمحاميه الذي بإمكانه أن يحصل لأجله على المعلومات التي ترضيه، حتى رن جرس تليفونه الخليوي. وكان الاتصال من القصر.

- فنسنت يتكلم.

- هل أنت هنا.. يا ولدي؟

صوت جده الحاد جعله يندفع بسؤاله والعرق البارد يتفجر منه: «ماذا حدث؟».

- لقد تلقينا لتوّنا مخابرة من مستشفى «باسي» في باريس بأن بول صدمته شاحنة بينما كان يقطع «البوليفار» في الضوء الأحمر. بحثوا عن العنوان في محفظته واتصلوا بنا، إنه ما يزال غائباً عن الوعي.

- أنا في طريقي إلى المستشفى!

اجتاز الرحلة القصيرة إلى المستشفى القريب بعينين غائمتين، ودخل غرفة الطوارىء راكضاً وقد تملكه خوف بالغ من أن لا يستيقظ بول أبداً. كان فنسنت الآن هو الذي يدعو الله أن يبارك ولده ويبقيه حياً.

سأل الموظفة الجالسة على مكتب الاستقبال:

- أين وضعتم بول رولاند؟ أخبرتني بالشرطة أن شاحنة صدمته. وأنا أبوه.

- ابنك موجود في الطابق الخامس. أدخل من ذاك الباب.

دفع الباب واندفع إلى الداخل. الستار المنسدل عند رقم خمسة جعل قلبه يهبط كحجر ثقيل. وكانت ممرضة خارجة لتوّها.

- هل ما زال ابني غائباً عن الوعي؟

- لا. لقد استيقظ منذ دقائق.

تنفس فنسنت الصعداء: «الحمد لله».

- الطبيب ما زال يفحصه ولكن يمكنك الدخول.

لأول نظرة، بدا بول مليئاً بالحياة بالرغم من شحوبه. وكان ثمة انتفاخ بحجم البيضة على جبينه، وكما كان الطبيب ينظف جرحاً على وجنته اليسرى. ورفع بصره حين عرّف رولاند بنفسه.

- ابنك فتى محظوظ. هناك رضوض على ذراعه وساقه اليسرى، ولكن لا عظام مكسورة. كشفت الأشعة أنه يعاني من ارتجاج في المخ لكن الدوار سيزول بعد بضعة أيام من الراحة، وستكون حالته ممتازة. سآمر بنقله إلى غرفة خاصة.

أراحته هذه الكلمات: «شكراً لكل شيء».

بعد ذهاب الطبيب، جلس فنسنت على كرسي بجانب ابنه الذي كان مغمض العينين طوال الوقت، وأمسك بيده: «ولدي. أنا بابا هنا معك. الحمد لله أنك ستشفى».

وارتجف صوته. لكن بول لم يجب.

- بول. قل شيئاً! أنا أحبك.

واختنق صوته.

- لا. أنت لا تحبني.

صدر هذا الرد المليء بالألم من بين شفتين متوترتين محطماً والده بيرودته، ليتبعه بقوله وهو يجذب يده من قبضة أبيه: «لا أريدك هنا. دعني وحدي».

فقال الأب وقد هبطت معنوياته: «هذا غضبك يتحدث. إنك تعلم أنني لن أتركك قط. إنك ابني وأنا سأبقى معك حتى تخرج من المستشفى فأستطيع أن آخذك مع مونيك إلى البيت معي».

فتح بول عينيه ولكن لم يكن ثمة أثر للدفء في عينيه الجافتين، أو في ملامحه. لم يكن هذا هو الابن الذي أحبه فنسنت ورباه منذ ولادته.

– أنا لست ذاهباً إلى سانت جينز. لقد انتهى ذلك. سأقيم في باريس. لا تقلق فقد سبق وتدبرت أمر بيت ووظيفة، فأنت لم تعد مسؤولاً عن إعداد أي شيء لأجلي بعد الآن.

رد على أبيه بلهجة بالغة المرارة. وبدا العبوس على وجه فنسنت: «أنا أعرف أنني قلت أشياء كثيرة مندفعاً دون تفكير يا بول، وأنا أعتذر لذلك. عندما تتحسن صحتك سأستمع إلى ما كنت تريد قوله».

– لقد فات الأوان لذلك. لقد انتهى ما بيننا ولا أريد أن أراك مرة أخرى.

تنهد فنسنت نادماً لتركه الأمور تصل إلى هذا الطريق المسدود، وقال: «ستحدث عن كل ذلك فيما بعد. أما الآن فالمهم هو شفاؤك».

ولم يصدر عن بول أي تعليق... فتركه ليرتاح ثم اتصل بالجد موريس ليطمئنه على حالة بول. وبكى الجد بارتياح. ولحسن الحظ لم يحاول الاتصال بمونيك التي لم تعرف شيئاً عن الحادث بعد.

تحدثا عدة دقائق، ثم لحق فنسنت بالممرضين الذين نقلوا بول إلى غرفة خاصة في الطابق الثالث حيث دخل طبيب آخر إلى الغرفة وصافح فنسنت: «أنا الدكتور موروا. أحب أن أحدثك عن حالة ابنك خارج الغرفة».

خرج الأب معه وقد تملكه القلق. ثم نظر إليه عابساً: «هل هناك مضاعفات في إصابة إبني لم تخبروني عنها؟».

– هذا ما أخافه. مهما كان رأي الطبيب الذي استقبله، الأفضل أن تسمع التفاصيل مني. إنني رئيس قسم الطب النفسي في مستشفى باسي.

كلام الطبيب هذا كان أشبه بطعنة تلقاها فنسنت في أعماقه. فقال: «تابع كلامك يا دكتور، فأنا مستمع إليك».

وفي الدقائق التالية سمع من الطبيب كلاماً لا يحب أي أب سماعه.

– إذا شئت استشارة طبيب نفساني آخر، ليس لدي أي مانع.

– أنا واثق من كفاءتك. أعلم أن ولدي بحاجة إلى مساعدة، كلما كان ذلك أسرع، كلما كان أفضل.

فأومأ الطبيب: «ما هو قرارك بالنسبة إلى الأيام القليلة القادمة؟».

– أنا هنا اليوم مع ابني. وستكون معي ابنتي مونيك، وهي توأمه.

– هذا حسن، أما حالياً، أريدك أن لا تذكر شيئاً مما حدثتك به لابنك أو ابنتك. كن طبيعياً في كل ما تقول. أما أنا فسأتحدث إليه بين حين وآخر في هذين اليومين. ثم أجتمع بك مع ابنتك، معاً، ثم مع كل منكما على انفراد. ومن هناك نبدأ.

شكره فنسنت بفتور. وعندما طمأنته الممرضة أن بول يرتاح، استقلّ سيارته إلى مدرسة مونيك.

قبل أن يذهب إلى غرفتها، توجّه إلى المكتب وشكر الناظرة لاهتمامها بابنته. فقالت له إن ذلك كان من دواعي سرورها. دعته لزيارتهم في أي وقت يكون فيه في باريس. وكانت في عينيها دعوة خاصة ليست بحاجة إلى تفسير.

بعدما أخبرته الآنسة لين عما أسرّت إليها مونيك عن الناظرة، وجد نفسه يرفض هذه الدعوة الوقحة.

لقد استمتع برفقة عدة نساء أثناء السنوات الماضية حين كان يزور المدينة لإنجاز بعض أعماله، لكن الناظرة لم تكن أبداً واحدة منهن.

كان ما يزال مصدوماً لما قاله له الدكتور موروا عندما وجد مونيك في غرفتها مستلقية على سريرها، وأهلكه منظر الدموع تحرق خديها. لقد سبق ورآها بهذا الشكل من قبل، ولكن لم يسبق أن كان السبب في ذلك. وطعنه هذا في الصميم.

جلس على حافة سريرها وأحاطها بذراعيه وقد حطّمه الشعور بالذنب: «آسف يا حبيبتي... آسف للغاية».

وأخذ يهزها لحظة ثم تابع يقول: «أرجو أن تصفحا عني، أنت وبول، ذات يوم».

لكنها، مثل بول، بقيت صامتة. ما الذي فعله معهما؟ وإذ تذكر أن بول وحده في المستشفى، قال لها: «هيا بنا! علينا أن نعود إلى المستشفى. فلنحمل أغراضك إلى السيارة. هناك شيء هام عليّ أن أخبرك به ولكن ليس قبل أن نبتعد عن المدرسة».

قوله هذا جعل ابنته المتنفخة العينين تساعده على أن يملأ صندوق السيارة بحقائبها التي سبق لها أن حزمتها من قبل، توقعاً لتركها المدرسة نهائياً. وفي الطريق إلى المستشفى التفت إليها قائلاً: «لماذا لم تركبا، أنت وبول، في نفس التاكسي إلى المدرسة؟».

- لقد انطلق راكضاً فلم أستطع منعه. ولكن عليّ أن أخبرك بأنني لا ألومه على ما فعل، يا بابا.

- ولا أنا. ولكن أخاك، لسوء الحظ كان من الانفعال بحيث تعرّض لصدمة سيارة.

كانت هذه هي الحقيقة، ولكنها ليست كلّها. ولن يعترف بها حتى يرى الدكتور موروا الوقت مناسباً لذلك.

وأضاف عندما صرخت بذعر: «لكنه سيتحسن تماماً. ليس ثمة كسور، بل رضوض فقط، وبعد أيام قليلة سيسمح له بالرحيل. المشكلة الآن هي أنه يظن أنه يكرهني، والحقّ معه تماماً. وقبل أن تمضي الليلة معه، أريد أن أسمع كل شيء عن هالي لين. لا تغفلي أي شيء، ولا تخافي فأنا لا أطلب هذا لأنني أظن بها أي شرّ أو فساد. أريد أن أعرف نوع علاقتكما بها وذلك لأعلم ما الذي يجول في خاطر بول. أنا أحب أخاك للغاية، لكنني أريد أن أعرف كل الحقائق، وإلا فلن أستطيع أن أعتذر بالشكل الذي يقنع بول بأنني آسف حقاً، هل تفهمين ما أعني؟».

- لا أظن أنك قادر على إصلاح الوضع يا أبي.

نبهه رأيها هذا إلى ما أخبره الدكتور موروا به عن حالة ابنه التي تحرق القلب. فقد كانت لهجتها حاسمة بالغة الخطورة.

لقد كبر ولداه أثناء التسعة أشهر الماضية... ولم يكن موجوداً ليرى

حدوث ذلك ما جعله يشعر بألم حارق. ليس لما خسره فقط، ولكن لما تسبّب في حدوثه.

قال: «عليّ أن أحاول».

- لقد أحبها بول منذ اليوم الأول الذي انتظرتنا فيه في متجر «تاتي». وقد أدركت السبب، فقد كانت كاملة الأوصاف. وأنا أوافق تماماً على أن تكون زوجة أخي المقبلة.

- وما الذي يجعلها بهذا الامتياز عن غيرها؟

- إنها الوحيدة التي أراها تستحق حب بول.

تستحق؟ إنها كلمة جبّارة فعّالة عندما تصدر عن مونيك المتعلّقة بأخيها التوأم إلى حدّ الرغبة في أن تتملكه. عليه أن يكون حذراً في متابعة الحديث. ذلك أنه هو نفسه تزوج في الثامنة عشرة من عمره. لم يكن يستطيع أن يقول إن بول أصغر من أن يعلم الفرق بين الافتتان والحب.

كيف يمكنه أن يخبر ابنته بأن بول ربما سيقع في الحب أربع أو خمس مرات قبل أن يتجاوز منتصف العشرينات؟

ذلك أن الرجل لا يصبح شخصاً شاعراً بالمسؤولية قبل هذه السن. عند ذلك فقط يمكنه أن يجد نوع الاستقرار الذي يحتاجه لكي يجد زواجاً سعيداً مع امرأة مناسبة.

- كان بول يريد أن يخبرك عنها قبل الآن بكثير، لكنه كان خائفاً من أن لا توافق على وقوعه في حب امرأة أميركية. وهكذا طلب مني أن لا أخبرك شيئاً عنها قبل أن يكون مستعداً.

أدرك فنسنت، في أعماقه، أن ذلك ليس هو السبب الذي منع بول من أن يخبره.

- أنا لا أكره الأميركيين. أنا اعترف بأن زبوناً أميركياً جاء إلى هنا منذ سنوات فلم أهتم به بالذات، ولكنني، على العموم، أرى معارفي الأميركيين ظرفاء تماماً. أما ردة فعلي تجاه الآنسة لين فلا علاقة لها بجنسيتها. لقد صدمني أن ينفق المال على ثمن خاتم بدلاً من السيارة المفروض

أنها هدية تخرّجكما.

أحنت ابنته رأسها: «كان مصمماً على أن يعقد خطوبته آخر السنة الدراسية. أخبرته بأن السيارة لا تهمني، فإذا أراد أن ينفق ذلك المال عليها فأنا موافقة. وفي حالة قلقك على المال، صمم على أن يسدّد المبلغ أقساطاً شهرية. لقد أعطاه ناظر مدرسته تنويهاً خاصاً ساعده في الحصول على وظيفة في بنك في «مونت بارناس»، والمفروض أن يبدأ تدريبه يوم الاثنين».

كان هذا شيئاً لا يصدّق.

غداً سيذهب فنسنت إلى مدرسة بول ليحضر له أمتعته. وسيتصل من هناك بمدير البنك يخبره بحادث الاصطدام الذي تعرض له بول.

- دار بيني وبين الآنسة لين حديث بعد خروجكما من الشقة، ومع أنها بدت لي صغيرة السن، فقد أخبرتني بأنها في الخامسة والعشرين.

- هذا صحيح، فقد تصفّح بول جواز سفرها.

- ألا تظنين أن امرأة تكبر أخاك بسبع سنوات هي أكبر من أن تناسبه؟

- كلا بالطبع. بول يراها خلابة للغاية.

وفكر الأب في أن حبها لتوأمها، منعها أن تفسد عليه قراره. وحك رقبته مذعوراً. إنه يراهن على أنه لا يوجد في باريس كلها كثيرات يملكن ميزات الآنسة لين الأنثوية فقوامها رشيق جميل، لا يحتاج إلى ملابس ثمينة لكي يستدعي الانتباه.

باستثناء الخاتم الذي خلعته في حضوره، لم يرها تلبس أية مجوهرات ما عدا ذلك الصليب حول عنقها، كما أن وجهها كان خالياً من أي زينة.

- بول يظن أن زميلاتي في المدرسة سطحيات مملاّت.

هالي لديها من الخبرة ما يجعلها مختلفة عن الآخريات. إنها أفضل مستمعة في العالم.

لن يكون لديه أمل في التفاهم مع بول وثمة امرأة مثل الآنسة لين تسيطر على كيانه.

- هل لديها أسرة هنا في باريس؟

- لا. لقد ولدت في كاليفورنيا. لكنها وحيدة في العالم الآن.

فكر قليلاً ثم قال: «أخبريني عن تجاربها تلك التي جعلتها تبدو متفردة في نظرك».

- لا أعلم التفاصيل لأن من الصعب عليها أن تتحدث عنها. لكنها تعرضت لحادث اصطدام طائرة منذ سنوات. وهذا جعلها تعيد تقييم قدراتها. ثم قررت أن تساعد الناس.

- هذا قرار يدعو إلى الإعجاب.

تمتم بذلك محاولاً إخفاء لهجة التنازل من صوته.

كيف حدث أن تعرّف ولداه إلى هذه المرأة بالذات من بين كل سكان باريس؟

- ما الذي جاء بها إلى باريس؟

- عملها.

- أتعنين أن لمتجر تاتي فرع آخر في كاليفورنيا؟

فهزت مونيك رأسها: «لا».

- لماذا يتملكني شعور بأنك تخافين من الإجابة على سؤالي؟

- طلب بول مني أن لا أخبرك.

- لماذا ما دامت هي كاملة الأوصاف بهذا الشكل؟

- لأنه يعلم أن الجواب سيسعدك.

كانت ابنته تتحدث بالألغاز. ركن السيارة في موقف المستشفى للسيارات: «هل أنا ذلك الغول الفظيع الذي لم تعودي تثقين به؟».

كان بحاجة إلى كل الحقيقة التي بإمكان ابنته أن تزوده بها وذلك لكي تنجح خطته مع الدكتور موروا.

التفتت إليه ببطء، وبدا وكأن عينيها الحزينتين الغاليتين عليه، تحتلان كل وجهها: «بعد أسبوعين ستذهب هالي إلى كاليفورنيا لكي تدخل الدير».

الآنسة لين تدخل الدير، أيعقل؟

وتابعت بصوت مرتجف: «لم يستطع بول احتمال ذلك، ولهذا أعطاها الخاتم. كان يسعى لإقناعها بأنه جاد في الزواج يوماً ما. سيفعل أي شيء كيلا تنفذ قرارها هذا الذي سيمنعه من رؤيتها مرة أخرى. لو تعلم كم هي رائعة هالي، لكنت...».

قطع عليها كلامها مشككاً: «انتظري لحظة. أتقولين إنها أخبرتكما بأنها تنوي أن تصبح راهبة؟».

لا شك أن ليس هناك أفضل من هذه القصة المختلقة كي تجعل بول يغرق في حب الآنسة لين الانتهازية.

- بابا... هالي هي الآن راهبة غير مكرّسة رسمياً.

فتمتم وهو يصرف بأسنانه: «لقد كانت إذن تكذب عليكما».

فقالت بصوت هادىء: «لا. فقد كانت تخدم الكنيسة طوال فترة السنة والنصف الماضية من خلال الدومينيكانيين في كاليفورنيا، ثم في «دير كليرمونت» غير البعيد عن متجر «تاتي». هذه الأيام يزداد عدد الراهبات غير المكرّسات اللاتي يعملن في ثياب عادية أثناء اختلاطهن بالناس. إنهن يعملن نهاراً لكسب معيشتهن».

لأول مرة يسمع فنسنت شيئاً كهذا. وسواء كان ذلك صحيحاً أم لا، فإن مونيك تصدّقه تماماً.

تنفس بعمق: «لا بأس. لنفترض أن كل ما أخبرتني به هو صحيح، لماذا تغادر باريس فجأة؟».

بدت على ابنته خيبة الأمل: «إنها مصممة على أداء القسم في كنيسة «مذرهاوس» في حزيران. المشكلة الوحيدة هي أننا، بعد الاعتراف، لن نراها أبداً».

وكشف ارتجاف صوتها عن تأثرها العميق ما أذهل أباها. وتابعت تقول: «بول متلهف على إبقائها هنا، فهو يحبها كثيرا. القضية لا تحتمل عدة سنوات من استمالتها آملاً أن تغير رأيها فيخطبها. عليه أن يقوم بذلك الآن قبل أن يفوت الأوان؛ لقد استغرق استجماعه لشجاعته شهوراً. لقد

خططنا للاحتفال بعيد مولدها لكي نحضرها إلى الشقة حيث يمكنه أن ينفرد بها ويعرض عليها الزواج ولهذا تركتهما معاً فترة كافية لشراء ثوب بآخر ما بقي من النقود التي وفرتها. لطالما كانت تريد شيئاً عصرياً من باريس».

شرح ابنته هذا زاد من الظلمة التي غمرت نفسه منذ حديثه مع الدكتور موروا. وبينما هي تتحدث كان يسمع صوتاً آخر من حديث آخر يطغى على كلامها.

(أنا لست حبلى، لكنني لو كنت كذلك، هل تطردني مع علمك بأنني حامل بحفيد؟ هل كنت ستحرم بول من أن يحب ولده ويربيه؟).

لقد أصدر ضحكة خشنة وأضاف يقول: (ومن سيعتبره ابن بول؟) ثم صوتها: (حذار من أن تقول شيئاً آخر تندم عليه طوال حياتك. لقد فاجأنا بول، نحن الاثنين، بهذه الحفلة هذا المساء).

ثم (عدني بأن تصلح الأمور معه الليلة قبل أن يفوت الأوان. إنه يحاول جهده أن يكون رجلاً. اذهب إليه واشرح له سبب استيائك هذا. بول بالغ العذوبة والإحساس، وهو سيتفهم ويصفح عنك).

تأوه فنسنت. تقييمه للوضع كان خاطئاً كلياً. وشعر وكأنه دخل منطقة مجهولة لا مخرج منها.

وفي الواقع، لم يكن هناك مخرج... خصوصاً بعدما أخبره الطبيب النفساني به.

صحة بول العقلية في خطر بالغ، الأكثر من ذلك هو أن فنسنت قد أتلف، وبشكل دائم، علاقته بابنه. وقد زاد الأمر سوءاً عدم قدرته على مساعدة بول كما طلبت منه الآنسة لين.

إنها فعلاً غير مغرمة بابنه.

إنه يتذكر قولها إنها تحب بول كما تحب أخاً أصغر لها. وقبل أن تغادر غرفة الطعام قالت: (الوداع نهائياً. وليباركم الله).

شيء ما في كلمات الفراق هذه أقنعه بأنها كانت تخبر ولديه بالحقيقة، وأنها كان تعني ما تقوله حرفياً لأنها كانت ستدير ظهرها إلى العالم حين

تؤدي القسم.

كل ما حدث في شقته أخذ يصبح مفهوماً بشكل مريع. لقد انقلبت أحوال أسرة رولاند رأساً على عقب.

مونيك بالكاد تكلمه. وابنه أصبح وكأنه في جهنم لأن فنسنت أهان حب حياته، حب امرأة على وشك أن تصبح راهبة فيفقدها إلى الأبد.

كل شيء فعله فنسنت منذ ولادة توأميه لكي يتأكد من أنهما لن يكررا أخطاءه قد تفجّر في وجهه.

لن يعود شيء في حياته كما كان أبداً.

أتراها اثنتي عشرة ساعة فقط منذ استيقظ في غرفته في الفندق في لندن، مبتهجاً لأنه سيستقل الطائرة إلى باريس ليفاجيء ولديه الغاليين؟

لقد جعله اليأس، هذه الليلة، يشعر بأنه كبر ألف سنة.

- دعينا ندخل يا صغيرتي، فإن بول بحاجة إلينا. سأبقى بجانبه حتى ولو كان يتمنى لي الموت..

حتى ولو كان ولدي يتمنى لو يترك هذا العالم...

٣ - عودي رجاءً

كانت الساعة الخامسة مساء الأحد. وقد انتهت هالي من خدمة آخر زبائنها وتركت المتجر.

يومان مرّا على اندفاعها السريع إلى خارج شقة السيد رولاند وقد تملكها الألم. الأذى الذي تسبّبت به، دون أن تدري، بصداقتها لأولاده، ما زال يشغل بالها ولن يزول حتى تفعل شيئاً لتخرج من الجحيم الذي وجدت نفسها فيها.

كانت الليلة الماضية قد ابتدأت بالصيام بعد أن أدت الصلاة، كما أن لديها موعداً الليلة للحديث مع الأم ماري كلير عن التوأمين، إنهما الآن في منزلهما مع أبيهما في سانت جينز.

وخافت هالي أن لا تكون محاولتها الحديث معه أو مع ولديه، ولو تليفونياً، ناجحة. الشيء الوحيد الذي يمكنها التفكير في عمله هو أن ترسل إليه رسالة تعبر فيها عن أسفها، راجية أن لا يمزقها قبل أن يقرأها أولاً. ولكن قبل أن تضع أفكارها على الورق، أرادت أن تعرف رأي رئيستها في هذه المسألة.

في البداية، رأت هالي أن بإمكانها أن تلبي حاجة التوأمين إلى الحنان أثناء غيابهما عن البيت. لكن ذلك أعطى، وبشكل مدمّر، عكس النتائج المطلوبة.

مواجهتها المؤلمة لوالدهما جعلتها تخسر ثقتها بحكمها على الأمور بصفتها إنسان وليس فقط راهبة؟ لماذا لم تمنعها العناية الإلهية من ارتكاب هذا الخطأ؟

www.elromancia.com

هل كانت من الغرور بحيث اعترضت طريق التوأمين لأنها اعتقدت أن رسالتها هي الترفيه عنهما وهما اليتيمي الأم؟ وهل أعماها ذلك عن رؤية دلائل المتاعب؟.

أم أنها غريزة الأمومة الكامنة قد برزت فجأة إلى الحياة، وبالتالي منعتها من حسن تقدير الأمور؟ في كلتا الحالتين، أي نوع من الراهبات ستكون في المستقبل حين تشتغل مع الشبان والشابات؟.

كان هذا نوع من الأسئلة التي تحتاج إلى أجوبة، فإذا لم تجد سكينة النفس تجاه هذا الأمر بسرعة، فهي تخشى أن لا تكون صالحة لما هي بسبيله. وجعلتها هذه الفكرة تجدّ السير شاعرة بالغثيان.

- الآنسة لين؟

عرفت ذلك الصوت العميق المليء بالرجولة، فاستدارت مدهوشة لأن والد التوأمين ما يزال هنا في باريس. وأخذ قلبها يخفق.

كانت تريد فرصة أخرى تتحدث فيها معه وتحاول تقويم الأمور. وجوده الآن يعني أن إحدى أمانيها على الأقل، قد استجيبت.

كان قد أوقف سيارته عند المنعطف بالقرب من متجر «تاتي». وتذكرت أن مونيك انتظرتها في نفس البقعة في التاكسي منذ ليلتين، إلا أن فنسنت نزل من سيارته وتقدم لملاقاتها.

كان مرتدياً بذلة رمادية يتناسب لونها مع سمرة بشرته ومظهره الوسيم. ولكن عندما اقترب منها، شعرت بأنه أصبح أكبر سناً منذ تلك المواجهة بينهما.

ثمة خطوط أحاطت بفمه بينما بدت بشرته السمراء شاحبة، كما رأت في عينيه البنيتين ألماً زاد وضوحه أهدابه السوداء كالفحم.

رغم أنه لم يحدّق إليها بنفس الاحتقار والأنفة كما من قبل، لم تشعر بأن شعوره أصبح أكثر مودة نحوها. هذا إلى أن مرور الزمن قد خفف من غضبه كما يبدو.

قال دون تمهيد: «بول في المستشفى».

كان هذا آخر ما توقعت سماعه. وصرخت بذعر: «ماذا حدث له؟».

- ابني ليس على وشك الموت إذا كان هذا ما تخافينه. على الأقل ليس بسبب ألم جسدي.

- ما الأمر إذن؟

سمعته يتنفس بحدة: «صدمته شاحنة بعد أن ترك الشقة تلك الليلة».

- آه، كلا...

وارتجف جسمها.

- كما أخبرتك، سيشفى. كل ما أصيب به هو ارتجاج في المخ وبعض الرضوض.

أغمضت عينيها بشدة: «الحمد لله أنه حيّ. كان من الكدر بحيث لا يدهشني عدم إدراكه إلى أين كان يسير».

- في هذا أنت مخطئة. عندما أحضره الإسعاف إلى المستشفى، كان غائباً عن الوعي. وعندما صحا في قسم الطوارىء، ظن نفسه قد مات وأنه في العالم الآخر. وعندما أخبره الطبيب أنه لم يمت بل هو حي تماماً، لم يشأ بول أن يصدق ذلك. ثم اعترف بأنه تعمد الاصطدام بالشاحنة.

فصرخت: «ماذا؟ هل أراد بول أن يموت حقاً؟».

عكست عيناه المعذبتان ذعرها، وشعرت بيده تقبض على مرفقها: «علينا أن نتحدث ولكن ليس بإمكاننا ذلك هنا. أظنك أنهيت عمل اليوم؟».

فأجابت شاعرة بدوار: «نعم، كنت في طريقي إلى... بيتي».

عليها أن ترجىء موعدها مع الأم ماري كلير إلى ما بعد. فهذا أهم.

- في هذه الظروف، أفضل أن آخذك إلى شقتي أولاً. وأثناء تناولنا الطعام أخبرك بما قاله لي الطبيب قبل أن أغادر المستشفى هذا المساء.

أومأت برأسها وهي ما زالت ترتجف لهذا الخبر. وبدا شيء من الارتياح على ملامحه المتوترة لتجاوبها هذا، ووجّهها بيده التي ما زالت على مرفقها، نحو سيارته. كانت واثقة من أن هذه حركة آلية منه، ومع ذلك شعرت بحرارة يده تسري في جسمها.

كانت، دون شك، شاعرة بقربه منها إلى درجة بالغة لأنها لم تسر مع رجل منذ موت زوجها. منذ تلك اللحظة الهائلة التي أدركا فيها أن الطائرة تسقط، سحقها بين ذراعيه لآخر مرة. ومنذ ذلك الحين أهملت كل رجل آخر.

ساعدها على الصعود إلى السيارة ثم جلس خلف المقود وسرعان ما انضم إلى حركة السير. وساد الصمت بينهما دقائق قالت بعدها: «إنه ذنبي لأنني لم أكن واعية إلى شعور بول نحوي».

- قبل أن تبدأي بلوم نفسك، إنك بحاجة لأن تعلمي أن هناك عوامل عدة أدّت إلى هذه الأزمة. أخبرني بذلك الدكتور موروا، الطبيب النفساني الذي فحص ابني. وحسب قوله، لا يمكن لوم أحد. وأن نعاقب أنفسنا لاعتقادنا بأننا أخطأنا بحق بول لن ينفع شيئاً ولن يحل الأزمة.

فقالت بصوت ينبض بمشاعر لم تستطع أن تخفيها: «وهل استطعت أن تتخلص من شعورك بالذنب؟».

قال بعد صمت طويل جعلها تظن أنه لم يسمعها: «لا».

همس بذلك بصدق مليء بالألم ما جعل جرحها ينفتح من جديد. إنها فرصة ثانية تمنحها لها الحياة بعد حادث الطائرة لتفعل شيئاً نافعاً في حياتها.

على الأقل كان ذلك هدفها في البداية فلم تفلح إلا في إشاعة الاضطراب في أسرة رولاند.

قالت: «كان يفترض أن أكون أكثر حكمة... أن أكون الشخص الذي يجلب قبساً من الضوء في يوم سيء... الشخص الذي يزوّد حياتهما بالراحة والسلوى لمجرد وجوده وإصغائه لهما فيما لو كانا بحاجة إلى سند. لكنني لم أر ذلك يحدث».

- لست وحدك من فوجيء بحدوث ذلك.

هتف بذلك متهماً نفسه، فشعرت بكلماته تتغلغل في كيانها، بينما تابع يقول: «لا أتذكر أمي جيداً، لكن أبي فقط هو الذي قيّد حريتي أثناء نموّي. كان يخاف من أنني إذا تركت كرم العنب، ولو لرحلة قصيرة، لن أرضى

أبداً بالبقاء في البيت بعد ذلك. وحاول جداي أن يتدخلا لأجلي، ولكن عبثاً. وبقيت سنيناً ألعن أبي وأقسم أنه إذا أصبح لدي أولاد، سأحرص على أن يتعرفوا إلى أماكن أخرى وخبرات جديدة. وعندما أخبرت التوأمين بأنني سأرسلهما إلى مدرسة داخلية في باريس، وهو شيء كنت متلهفاً إليه عندما كنت في سنهما، لم يظهر عليهما حماسة لترك البيت. وعجبت لماذا لم يقفزا فرحاً لهذه الفرصة للتعرف إلى الحياة».

ونظر إليها: «كان من سخرية القدر أن أراهما لا يريدان الرحيل، لكنني كنت واثقاً من أنني أقوم بالشيء الصواب إذ أدفعهما إلى خارج العش، معتقداً أن هذا لمصلحتهما».

فقالت وقلبها يتحطم: «لقد منحت ولديك الكثير من الحب إلى حد لم يشعرا معه برغبة في الابتعاد عن البيت. لكنها ما كانا يريدان أن يجرحا مشاعرك في إبداء رغبتهما بالعودة إلى البيت».

فقال بخشونة: «وهكذا أخبراك أنت بذلك. آسف لاضطرارك إلى تحمل مسؤولية غلطتي طوال هذا الوقت».

فصرخت: «إياك أن تقول هذا. تلك لم تكن غلطة، فقد أمضيا في باريس وقتاً رائعاً. وقد اكتسبا خبرة ما كانا سيكتسبانها في أي مكان آخر. إن لديك أروع ولدين في العالم، وأنا شديدة الحب لهما. وقد أحببت كل لحظة أمضيتها معهما. إن حاجتهما إلى أصدقاء من خارج المدرسة يبرّر عملي. قبل أن أحضر إلى فرنسا، كان عليّ أن أؤدي القسم، ولكن، مثلك أنت، شعرت الأم المقدسة بأن فتاتها قليلة الخبرة وبحاجة إلى قضاء مزيد من الوقت في العالم... كانت تريدني أن أكون واثقة جداً من رغبتي في إداء رسالتي الدينية قبل أن أصبح راهبة. وقد رتبوا لي عملاً هنا في باريس، لكنني لم أشأ البقاء، عند ذلك تعرفت إلى ولديك فكان ذلك بمثابة صرخة من القدر بالنسبة إليّ. كنت حريصة جداً على وجودي هنا لأجلهما. لم أدرك أن بول يعتبرني أكثر من مجرد صديقة. لم أعرف...».

وتلاشى صوتها.

- هل نسيت أنني أنا الذي استحال غولاً وطرده من الشقة؟ والآن أصبحت ابنتي من الخوف مني بحيث تجفل كلما حاولت أن أتحدث إليها. لكن هذا كله انتهى.

لم يعودا إلى الحديث حتى وصلا إلى شقته. قادها إلى غرفة الطعام. كانت كل آثار حفلة عيد مولدها قد أزيلت، ثم سألها عما تحب أن تأكل.

- لا شيء. شكراً على كل حال.

فقطب حاجبيه: «ولكن لا بد أنك جائعة بعد عمل نهار بطوله يا أخت».

- أنا لم أصبح أختاً بعد، يا سيدي، أدعني هالي من فضلك.

تفحص ملامحها لحظة: «ما رأيك في مياه معدنية؟»

رأته مصمماً على استضافتها، فقالت: «أنا ما زلت صائمة».

تخلل شعره بيده: «هل يضايقك إذا شربت قهوة أمامك؟ أنا بحاجة إليها لإنعاشي».

هذه الرقة والدماثة كشفت عن هذه الناحية من طبيعته التي جعلت ولديه يحبانه منذ البداية.

- طبعاً لا يضايقني، يا سيدي.

- ادعيني فنسنت.

- لا بأس.

منذ يومين لم تكن تتصور نفسها تتبادل معه حديثاً مهذباً.

- أرجوك أن تتناول عشاءك إذا شئت. إنك، في وقت كهذا، بحاجة إلى قوتك. أتصور أنك ومونيك غاية في الإنهاك.

وكانت خطوط الإرهاق حول عينيه وفمه تشير إلى قلة نومه.

- إننا نتبادل الجلوس بجانبه فهو لا يبقى وحده أبداً.

تشابكت نظراتها بنظراته الثاقبة لحظة طويلة لم تستطع أن تدرك ما يفكر فيه، لكن عنف تلك النظرة جعلتها ترتجف. وأخيراً قال قبل أن يتوارى في المطبخ: «انتفاخ تحت عينيك يدلُّ على أنك أنت أيضاً لم تنامي».

انتهزت فرصة غيابه لتذهب إلى الحمام حيث أنعشت نفسها بغسل يديها ووجهها، وعندما عادت وجدته جالساً عند رأس المائدة.

نظرت إليه وهو يضع ملعقتي سكر في قهوته. عند ذلك شملها بنظرة متفحصة: «يبدو عليك التسلية».

- عرفت الآن من أين اكتسب التوأمان حبهما للحلوى. إنهما لا يذهبان إلى أي مكان دون حلوى المرصبان.

ارتفعت زاوية من فمه فرأت وجهاً آخر لفنسنت قبل أن يفاجئهما، هي وبول، وقال: «كنت مجنوناً بتلك الحلوى حين كنت صبياً».

لا بد أن فنسنت رولاند كان صبياً حسن الشكل. أما الآن فهو رجل يخطف الأنفاس بوسامته.

انتبهت إلى أفكارها المنحرفة هذه، فجلست على كرسي بجانبه، متلهفة إلى الحديث عن ابنه.

- جئت إلى مكان عملي لأجل سبب معيّن. إذا كنت تريد مزيداً من المعلومات سأخبرك بأي شيء وأفعل أي شيء بإمكاني عمله للمساعدة. إنني أحب بول وحالته العقلية أكثر من كل شيء آخر.

وتنهدت بحرقة.

وضع كوب القهوة وسألها: «هل حبك له يكفي لكي تخبريه بأنك ستمضين الصيف في قصر رولاند؟».

كان سؤاله هذا آخر شيء توقعت أن تسمعه.

- حسب ما يقوله الدكتور موروا، يعيش بول في عالم مثالي من صنع خياله. ومجيئك إلى القصر هو كل ما يتمناه من كل قلبه منذ عرفك. ليس لدى بول شك في أنك إذا جئت إلى بيتنا وأمضيت معه بعض الوقت من يوم لآخر، ستدركين أن قدرك الحقيقي لا يكمن في الرعية مع أخوات أخريات.

خفضت رأسها. نجاة بول من الموت لم تغير آراءه. إنه ما زال يرى الأمور من زاويته الخاصة.

- ما هو رأي الدكتور موروا؟

- بالنسبة له... قد يكون هذا أفضل ما يمكن أن يحدث. سيكون الأمر بمثابة خلق جو من الإلفة سيساعده على الشفاء سريعاً وهكذا سيكتشف بول أنك لست ذلك المثل الأعلى للمرأة الكاملة الذي في خياله، بل العكس سيجدك إنساناً من لحم ودم لديك نقاط ضعفك. سيجد أن احتياجاتكما واهتماماتكما لا تنسجم معاً. ومع مرور الزمن، سيتغلب على افتتانه بك ويتركك. ذلك يدعى النضج، وهو ما يحتاجه.

تبع قوله هذا صمت طويل كانت أثناءه تستوعب كل ما قاله الطبيب النفساني. ثم نظرت إلى فنسنت تسأله: «وما رأيك أنت في نظريته هذه؟».

- هذه مسألة فيها نظر. أنت اخترت طريقك منذ وقت طويل. ومع ذلك يشعر الطبيب بأنه من المهم أن يراك بول مرة أخرى وبذلك لا يبقى تحت تأثير فكرة إساءتي إليك.

ونهض واقفاً، ولكن ليس قبل أن ترى ومضة عذاب في عينيه. كان الرجل يعاني من اضطراب داخلي بالغ. لقد استطاعت تميز هذه الدلائل بعد مرافقة راهبات غير مكرّسات ما زلن يعانين من مشاكل شخصية.

- من المؤكد أن بول لا يظن ذلك.

عادت الكآبة إلى عينيه: «دعينا لا نوهم أنفسنا بأن غضبي لم يسبب ضرراً دائماً».

كانت هالي واثقة من أن هناك سبباً. ثمة شيء هائل قد حدث في ماضيه، شيء قد يكون متعلقاً بأبيه المستبد. وارتجفت.

- قبل أن آخذك إلى المستشفى، يجب أن تعلمي أن بول لم يتحدث إليّ منذ حادثة الإصطدام. عليّ أن أعتمد على الطبيب ومونيك للاستعلام عنه. أخاف أن تكون، كأخيها، مقتنعة بأنني تعمدت إبعادك عنهما.

عند سماعها جملته الأخيرة، نهضت واقفة: «إذن، سأثبت لولديك أنهما مخطئان».

شعرت بنفسها ترتجف، ولكن لا يمكن أن ترجع كل الضعف الذي

تشعر به إلى الصيام.

لم يكن بإمكانها أن تمنع بول من محاولة إنهاء حياته. ما كان لأحد أن يعلم ما كان يدور في عقله حين ترك الشقة يوم الخميس. لكنه نجا بمعجزة، وهو الآن يحصل على أفضل علاج ممكن.

ولكن لا أحد كان يساعد أباه.

وراء ذلك الرجل الحازم يكمن رجل ضعيف، وعليها هي أن تنهي الأزمة القائمة بين بول وأبيه. إنها الشخص الوحيد الذي يمكنه ذلك. وإلا لن تعود أبداً تلك العلاقة القوية التي كانت بين الأب وابنه، مرة أخرى.

- هالي!

صرخت مونيك مذهولة وهي تخرج من غرفة بول فترى هالي في الممر مع أبيها. وبدا الارتياح البالغ على وجهها ممزوجاً بسرور حقيقي. وقبّلتا وجنتي بعضهما بعضاً.

- كنت أريد أن آتي قبل الآن، يا مونيك، لكنني انتظرت حتى أعطاني طبيبه إذناً بالزيارة. وكان أبوك من اللطف بحيث أحضرني من مقر عملي إلى هنا بنفسه، قائلاً إن علينا أن لا نتأخر لحظة واحدة.

في البداية، بدت الفتاة الفرنسية البالغة الحيوية غير واثقة، ونظرت إلى أبيها للتأكد من ذلك، ثم احتضنته: «شكراً يا باباً، سيجعل هذا بول سعيداً للغاية».

طبيعة مونيك المتسامحة أدفأت فؤاد هالي. وعندما التقت عيناها بعيني الأب من فوق رأس مونيك، قرأت فيهما الشكر: «سنتنظرك في غرفة الزائرين بينما تدخلين».

أومأت هالي قبل أن تدخل غرفة بول. ورغم أن التليفزيون كان مفتوحاً، إلا أنه بدا نائماً.

كان جوّ الغرفة دافئاً للغاية وفهمت سبب نومه فوق الأغطية. ولا شك أن أباه هو الذي أحضر له هذه البيجاما الجميلة المخططة التي يرتديها.

كانت صينية العشاء على منضدة السرير لم تؤكل بعد. تقدمت إلى جانبه لتنظر إلى الرضّ المنتفخ الذي كان بحجم بيضة الأوز وقد أصبح الآن مسطحاً.

- بول. أنا هالي. لقد جئت حالما أعطاني الطبيب إذناً بزيارتك.

ففتح عينيه: «هالي... لم أكن أظن أنني سأراك مرة أخرى... أنا لا... لا أستطيع أن أصدق هذا».

تقدمت وقبلته على خده الأيمن: «ولماذا لا تصدق؟ أظننا سنريح خدك الأيسر».

فكانت مكافأتها ابتسامة رائعة ينفرد بها آل رولاند.

- لا تحاول أن تجلس. يقول الطبيب إنك ما زلت تعاني من دوار.

- لم يعد هذا سيئاً كما كان.

فقالت مداعبة: «أنت كذاب، فإنك لم تأكل عشاءك».

- لست جائعاً. طعام المستشفى يثير الغثيان.

- هل هو أسوأ من طعام مدرستك؟ لا أظن ذلك. اعترف بأن الطاهية في سانت جينز قد دللتك للغاية.

فقال وهو ينظر إليها بثبات: «أعترف بذلك».

- هل تمانع في أن آكل عشاءك؟ لقد جئت من عملي مباشرة، إضافة إلى أنه حان وقت إنهاء صيامي.

فطرف بعينيه: «هل كنت صائمة؟».

- نعم. لأجلك وأجل أسرتك.

وجذبت كرسياً جلست عليه وأمامها الصينية، وابتدأت تأكل..

- قررت أن أسرة رولاند بحاجة إلى كل عون يمكنها الحصول عليه، حالياً. لا بد أن حادثك كان صعباً على الجد موريس الذي كان يعد الدقائق لعودتكما، أنت ومونيك، إلى سانت جينز؛ هل تحدثت معه اليوم؟

- لقد اتصل مرتين.

- أنا واثقة من أن سماعه صوتك يسعده. الحادث جعل الرعب يدب في

قلب كل شخص خصوصاً أنا.

رفع بول رأسه رغم الدوار: «كيف عرفت؟ من مونيك؟».

- لا، بل من أبيك. جاء إلى مقرّ عملي وأحضرني إلى هنا.

فأظلم محيّاه: «وكيف يمكنك حتى أن تتحدثي إليه بعد معاملته تلك لك؟».

- لقد قبلت اعتذاره القلبي. كل ما يفكر فيه هو سعادتك.

فقال بمرارة: «أنت مضطرة لأن تقولي هذا لأنك راهبة».

- بل تعلمت الصفح منذ طفولتي، يا بول، وليس هناك سبب آخر. إن أباك متألم إلى حد هائل وأنت أكثر من أي شخص آخر، تعلم صحة هذا. أما بالنسبة لكوني راهبة، فأنا لم أكرّس رسمياً بعد. وهذا هو سبب حضوري إلى هنا لأتحدث معك عن ذلك.

لم تتفاهم هالي، حول هذا الأمر، مع الأم ماري كلير. حتى أنها لم تجد لحظة فراغ لذلك، ولكن هناك أوقات كانت هالي تتصرف فيها بوحي من غريزتها، كما هي الآن.

لم يكن بول الوحيد الذي لم تكن مشاعره غير مستقرة.

- دعني أولاً أنهي عشائي، وبعد ذلك نتحدث. سأخبرك عن نفسي أشياء أنت لا تعرفها.

قولها غير المتوقع هذا نبهه، فأدار لها جانبه السليم وانتظر. كانت بحاجة إلى تغذية فأكلت بسرعة، وبعد أن شربت كأس عصير التفاح، وقفت ووضعت الصينية بجانب الباب، ثم عادت إلى بول وجلست. هذا دون أن تترك نظراته وجهها قط.

- ما سأقوله هو مفاجأة لك. لقد كنت متزوجة من قبل.

أجفل لقولها هذا. وزحف ألم إلى ملامحه ببطء كما كانت تتوقع. لقد انزاح غشاء عن عينيه، وتملكها الرضى.

ثم سألها بهدوء: «لماذا لم تخبرينا من قبل؟».

- لأن هذا كان مؤلماً للغاية. مات زوجي في حادث سقوط الطائرة

الذي سمعتني أتحدث عنه.

حدّق إليها وكأنه لم يرها قط من قبل: «هل كنت تحبينه؟»

– إلى حد هائل حتى أن الغضب تملكني بشكل فظيع لأن الله لم يأخذني أنا أيضاً معه.

همس وهو يبلع ريقه: «الجد موريس يقول إن أبي كان يحب أمي بهذا الشكل. أنا آسف لأجلك يا هالي».

– لا بأس، منذ حادثة الطائرة، لم تعد حياتي سهلة. ولكن بإمكاني الآن أن أقول صادقة إنني لم أعد أتألم. وكما يمكنك أن تتصور، غيّرني موته إلى حد بالغ، ما جعلني أجد العزاء في العمل بصفة راهبة غير مكرّسة. هناك كثير من الآلام في العالم يا بول وأن أتمكن من تخفيف عبء أي شخص، مهما كان العبء صغيراً، كان ينسيني آلامي ويبعث البهجة في نفسي.

انقلب بول على ظهره ونظر إلى السقف: «أتراني كنت أنا ومونيك بعض مشروعاتك الخيرية؟».

– نعم. كنتما تفتقدان موطنكما. فأردت أن أكون موجودة إذا احتجتما لمن تتحدثان إليه.

فعاد بنظره إليها، وقد بهت بعض الضوء في عينيه.

غشاء آخر قد انزاح عن عينيه. عند هذه النقطة كان عليها أن تتقدم بحذر: «ربما يمكنك أن تتفهم الآن مغامرة أن تصبح امرأة ما راهبة غير مكرّسة. أحياناً وهي تتقرّب من الآخرين، تتكون العاطفة في الشخص الذي يتلقى المساعدة، كما في المانح المساعد. وعندما يحدث ذلك، يصبح الوادع أصعب بكثير. بول... لقد تعلمت أن أحبك، أنت وأختك، وأنا أعلم أنكما تحبانني. لم يكن مفروضاً أن يحدث هذا، لكنه حدث. عندما جاءت أختك إلى مقر عملي يوم الخميس لتأخذني، كان علي أن أرفض. لكنني لم أمنعها، وبدلاً من ذلك صعدت إلى التاكسي وذهبت إلى شقة أبيك لأنني لم أشأ أن أحرم نفسي من صحبتكما».

كان الآن قد رفع نفسه على مرفقه وعيناه المتلهفتان على وجهها.

– هل تعلم لماذا أرسلوني إلى فرنسا؟

– لا.

– بعد أن عقدت صداقة قوية مع شخص في كاليفورنيا، حذرتني الأم المقدسة في الدير من أنني لم أمض وقتاً كافياً لكي أختبر عقلي قبل دخولي الدير نهائياً، وهكذا حثّتني على أن أمنح عقلي سنة أخرى قبل أن أؤدي القسم. ثم تولّت أمر إرسالي إلى هنا. كان واضحاً أنها تعرف عني شيئاً لا أعرفه، لأن التاريخ يعيد نفسه الآن. وهكذا ارتبطت بك وبمونيك. كل الغرض من أن تصبح المرأة راهبة هو أن تخدم الآخرين دون تفرقة بين شخص وآخر. وهذا مستحيل القيام به إذا كانت المرأة متزوجة ولديها أولاد. وحيث أنه لم يعد لي زوج، اعتقدت أنه أصبح لدي الحق في أن أخدم الآخرين. ولكن ربما أنا مخطئة. فأنا لم أكن أعلم أنك ستطلب مني الزواج، يا بول. ولأنني كنت فعلاً أشك في قدرتي على أن أصبح راهبة جيدة، فقد أذهلتني حقاً عندما قلت إن الحياة الدينية لا تناسبني. شعرت وكأن شخصاً يسير على قبري.

كل ما أخبرته به كان صحيحاً. لكن الإفصاح عنه بصوت مرتفع سبّب له مزيداً من الاضطراب. فصرخ: «أنا لم أكن أعني الأمر بهذا الشكل؟».

– أعلم أنك لم تكن تعنيه. لكن كلماتك انسجمت مع ذلك الجزء من نفسي الذي كان يشعر بأنني ما زلت غير مستعدة لإداء القسم. وإلا لما شعرت بمثل هذه الأهمية لصداقتي لك ولمونيك. وهكذا قررت أن أبقى في فرنسا لفترة أطول، آملة أن أعرف، مع الوقت، عقلي وقلبي بشكل أفضل.

– هالي...

تنبهت إلى الحماسة في صوته. وهنا دعت الله أن تكون نظرية الدكتور موروا صادقة، وإلا لكانت نتيجة قرارها أسوأ. ومع ذلك، ما كان فنسنت الأب ليخبرها بهذه النظرية لو أنه لم يشعر بأنها منطقية. فنوطه مس أعماق روحها. لو استطاعت أن تملأ هذه الفجوة بينه وبين ابنه، لفعل ذلك الأعاجيب في استرداد معنوياتها.

– ما دام عقد عملي مع «تاتي» ينتهي الأسبوع القادم، فلن أتمكن من البقاء في باريس. ولكن لنظام الرهبنة، لحسن الحظ، برنامج يشمل مدينة «ليون».

قطب حاجبيه: «ليون؟ ولماذا تذهبين إلى هناك؟».

– أولاً لأبحث عن عمل.

– أنت لست بحاجة إلى العمل. أنا سأهتم بك. سآخذ وظيفة في بنك «مونتبارناس» حالما أخرج من المستشفى.

– هذا ما أخبرني به أبوك، لكنك لا تفهمني. أنا ما زلت راهبة غير مكرّسة هنا في فرنسا بغيزا عمل. فإذا شئت أن أبقى عليّ أن أبرز ما يثبت أنني موظفة.

– تعالي إذن إلى سانت جينز. سأجد لك وظيفة في مكتب مصنعنا. المدير هو إيفز بروارد، وهو سيفعل أي شيء لأجلي.

– وماذا بالنسبة إلى وظيفتك الجديدة؟

– لقد حصلت عليها فقط لأبقى قريباً منك. وبما أنهم لم يبدأوا بتدريبي بعد، سأخبرهم بأنني غيرت رأيي. ستحبين القصر جداً. ويمكنك أن تقيمي في أية غرفة من غرف الضيوف تعجبك.

– لا، يا بول. إذا كنت سآتي إلى سانت جينز، سأبحث عن غرفة أستأجرها في المدينة كما هو حالي هنا في باريس.

فبدت في عينيه نظرة تأمل: «القصر ملحق به عدة مبانٍ خارجية كانت تستعمل للخدم سنة ١٨٠٠. إذا أعددنا، أنا ومونيك أحد تلك الأكواخ لك، يمكنك أن تستأجريه من خلال مدير أملاك أبي برنارد أرتوا. إنه يعيش مع أسرته في أحد تلك الأكواخ».

لقد فكر بول في كل شيء...

– كم يبعد القصر عن المدينة الرئيسية؟

– ثلاث كيلومترات.

– أظن إذا اشتريت دراجة نارية سريعة للرواح والمجيء، لن تكون هناك

مشكلة.

فلمعت عيناه: «لدى مونيك عدد من ذلك ويمكنك أن تستعيري واحدة».

فوقفت: «هل نترك الجواب إلى الغد؟».

– لا تخرجي الآن....

– أنا مضطرة إلى ذلك. إنها أوامر الطبيب. لكنني سأعود غداً. أرجو أن تكون تحسنت تماماً عند الصباح، تصبح على خير.

وخرجت بسرعة قبل أن يستطيع التفكير في سبب يؤخرها، ووقف فنسنت وابنته مونيك حالما رأياها في باب غرفة الجلوس.

– ألديك مانع في أن تأخذني بسيارتك إلى بيتي؟ شقتي قريبة من متجر «تاتي».

– كنت مصمماً على ذلك.

ونظر إلى ملامحها بعينين متلهفتين إلى رؤية أي دليل على نتيجة زيارتها لبول.

– سأذهب معك يا أبي.

وقبل أن يجيب سبقته هالي إلى الجواب: «عندما تركت بول كان مستيقظاً تماماً وبحاجة إلى صحبة. ولا أعرف من يمكن أن يبعث البهجة إلى نفسه أكثر منك، هنا».

وفتحت حقيبتها وأخرجت منها قطعة كبيرة من حلوى «المرصبان»، قائلة: «أنا أكلت عشاء أخيك الذي لم يرغب به، لكنني أظنه سيأكل هذا».

فضحكت مونيك: «إذا لم يأكله، سآكله أنا».

لوى فنسنت شفتيه. في كل مرة ترى هالي ردة فعل كهذا، ترغب بأن تتكرر مرة أخرى.

عادوا إلى حيث غرفة بول، وعانق فنسنت ابنته: «لن أتأخر».

والتفت إلى هالي وأمسك بمرفقها يقودها إلى المصعد.

أحست أنها متلهفة إلى أن تكون وحدها معه. وعلى كل حال، كان هناك

أناس كثيرون بإمكانهم أن يسمعوا كل كلمة ينطقان بها، فبقيت صامتة حتى وصلا إلى السيارة.

قال وهما يخرجان من موقف السيارات: «لقد أمضيت وقتاً طويلاً مع بول. لابد أنك تضايقت جداً معه. أنا آسف».

- لا تأسف. كل ما أرجوه هو أن لا تكون غيرت رأيك بالنسبة إلى نجاح نظرية الدكتور موروا لأن الوقت فات الآن. لقد ابتدأت بتنفيذها.

جذب الكابح، عند مدخل موقف السيارات، بقوة اهتزت معها السيارة: «ماذا تقولين؟».

بللت هالي شفتيها متوترة: «سيصل بول إلى ما يتمناه. سأمضي الصيف في سانت جينز».

أطلق شخص خلفهما نفير سيارته ليمرّ، لكن فنسنت كان جامداً مكانه حتى أن هالي تساءلت إن كان انتبه إلى تلك السيارة. وأخيراً أنزل زجاج النافذة وأشار إلى السائق ليدور حولهما. ثم سألها متشكّكاً: «ماذا بالنسبة إلى خطتك لدخول الدير؟».

- لقد تأجلت.

بقي عدة ثوانٍ لا يتحرك، ثم عاد فانطلق بالسيارة على «البولفار».

انعكس ضوء مصباح الشارع على ساعة معصمه فنظرت إلى يديه السمراوين فأثار انتباهها إلى أنه لم يكن يلبس خواتماً. تأملت كيفية قيادته وحركات يديه وخلب لبها رشاقة أصابعه وخبرته البالغة في القيادة وعضلات يديه القوية.

تملكها الرعب وهي تشعر نحوه بجاذبية هائلة، وعرقت راحتاها. لم تكن تظن أن بإمكانها أن تحس بهذه المشاعر بعد فقدان زوجها.

يا لضعف البشر...

- فهم بول أنني سأبقى راهبة غير مكرسة. لكنه مع ذلك، تابع خطته لأجلي.

- يمكنني أن أتصور ذلك.

- إنه يعتبر أن كل أفكاره ستنجح تماماً. وقبل أن أغادر غرفته، كدت أقترف غلطة وهي أن أخبره بأن عليه أن يأخذ موافقتك أولاً.

- الحمد لله لأنك لم تفعلي ذلك، وإلا لما جاء إلى البيت. كل هذا بفضل تضحيتك، يا هالي. لا أستطيع أن أعبر لك عن مشاعري الآن.

ولا هي تستطيع.

لقد دخل قلبها خوف جديد. خوف مصدره رجل من لحم ودم جالس بجانبها. رجل كانت معجبة به منذ أشهر قبل أن يتفجر في عالمها ذات ليلة غير عادية، بكل الغضب الضاري الذي يحمله نجم مذنّب من الفضاء الخارجي.

٤ - قرارات جريئة

- بابا؟ أنا عدت من المستشفى!

- لحظة واحدة يا مونيك!

أجابها أبوها بذلك وهو ما زال يجيب على المكالمة الهاتفية.

- آسف للمقاطعة، يا دكتور.

- لا بأس. كنت أقول إنه ما دمت ستغادر إلى سانت جينز غداً صباحاً، سأدع سكرتيرتي ترسل بالفاكس ملف بول الطبي إلى المستشفى في «بوردو»؛ دكتور كلوني هو طبيب نفساني ممتاز سأتشاور معه وأعلمه بكل شيء عن حالة ابنك. وإذا كان لديك أية أسئلة فلا تتردد في الاتصال بي.

- لن أتردد.

أسرعت مونيك إلى غرفة نوم أبيها. كانت تبدو متلهفة إلى الكلام. وابتسم هو لإبنته وقد سرّه أن الأمور تتحسن بينهما، بينما ما زال مصغياً إلى الدكتور موروا وهو يقول: «قبل أن تنهي المكالمة أريدك أن تعلم أن زيارة الآنسة لين اليوم لبول كانت مهمة للغاية. إنني الآن مقتنع تماماً بأن هذه الخطة ستنجح، وربما بأسرع مما نظن. اعتبرها علامة مشجعة على أن الأزمة قد مرت تقريباً دون الحاجة إلى أن نخضع بول إلى علاج نفسي مركّز. وفي الوقت المناسب سيعود ابنك إليك أفضل بكثير من قبل. أنا واثق من ذلك».

كان أمل فنسنت قليلاً جداً في أن يعتبره بول أباً له مرة أخرى. لكنه احتفظ بهذه الأفكار لنفسه لأن ابنه حيّ ويتطلّع إلى العودة إلى البيت.

بعد الحالة التي كان بها ليلة الخميس، هذا التقدّم الكبير يشكل معجزة.

وهذا يعود إلى المرأة الخالية من الأنانية التي وضعت مصلحة بول وسعادته قبل مصلحتها هي واهتماماتها.

- شكراً يا دكتور موروا. لن أنسى لك هذا الجميل. إلى اللقاء.

وعندما وضع السماعة قالت مونيك: «وأخيراً... هل اتصلت بالسيد جايد؟».

بينما كان فنسنت ينهي اتصالاته التليفونية الوافرة العدد استعداداً للقيام برحلتهم إلى بوردو، كانت مونيك قد أمضت اليوم بطوله مع بول قبل أن تعود إلى الشقة بتاكسي.

- نعم، وهو سيرسل الشيك صباح الغد. هل قبل بول أن يأخذ الخاتم؟

وكان فنسنت قد اعتمد على ابنته مونيكا في إعادة الخاتم إلى بول دون أن تسبب له الإستياء. فجلست على حافة السرير: «ليس في البداية. لكنني عندما قلت له إنك طلبت مني إعادته إليه لأنه هو صاحبه وبالتالي المكلف بالتصرف به، عند ذلك قبله».

- شكراً يا صغيرتي بإمكاني دوماً أن أعتمد عليك.

فنظرت إليه بعينيها الجياشتين بالعاطفة: «بابا، إذا حاول أن يعطيه مرة أخرى إلى هالي، فأنا متأكدة أنها لن تأخذه».

- وما أدراك بذلك؟

- أنا واثقة من ذلك.

قال وقد تملكه الفضول ليعلم ما يدور في ذهنها الحاد: «ما الذي تغير منذ الخميس عندما أخفيت نفسك لتمنحيه الفرصة ليعرض عليها الزواج».

فأحنت رأسها: «كل شيء».

- ألم يحصل على ما يريد؟ ظننتك سعيدة لهذا.

- أنا سعيدة فعلاً، ولكن...

- ولكن ماذا، يا عزيزتي؟

- لا أدري. فالأمور لم تعد كالسابق. لقد أصبح بول مختلفاً.

كان الطبيب قد أخبر مونيك بالحقيقة عن حادث اصطدام أخيها، وذلك

لأجلها ولأجل بول. ولكنه لم يخبرها بسبب قرار هالي القدوم معهم إلى سانت جينز. ذلك أن علاقة مونيك ببول حميمة للغاية، وقد تخبره بشيء في لحظة ضعف فتفسد خطة الطبيب نهائياً.

- ماذا تقصدين بكلمة مختلف؟

حسناً، أولاً، كنت أنا في الغرفة حين اتصل بالبنك حيث يفترض أن يبدأ التدريب اليوم. تملك المدير الغيظ لضياع وقته سدى. ورد عليه بول ببضع كلمات سيئة قبل أن يقفل التليفون في وجهه. لم يكن هذا تصرف أخي الذي أعرفه.

كان الدكتور موروا قد قال إن بول بحاجة إلى أن ينضج ويتعامل مع العالم الحقيقي. وأظنه الآن يختبر ذلك.

- ربما، الآن، سيمر بول بمرحلة يقوم فيها بأشياء كثيرة غير مناسبة وذلك لفترة، فهو يجتاز مرحلة تغيير في حياته. وكل ما يمكننا عمله هو أن نحبه ونساعده عندما يحتاج إلينا.

انهمرت الدموع من عينيها: «يا ليت لم يحدث شيء من كل ذلك».

ثم ألقت بنفسها بين ذراعي أبيها وبكت.

كان فنسنت قد تلفظ بنفس هذه الكلمات في اللحظة التي سمع فيها الجوهرجي يحدثه عن الخاتم وجوهرته الرائعة التي اشتراها بول لمن يريد أن يتزوجها. لكن الغريب أن شعوره قد تغيّر الآن.

كانت هناك أشياء لا يعرفها التوأمان. أسرار لا يعرفها سواه والجد موريس. أسرار أقسما، هما الإثنين، على أن يحملاها معهما إلى القبر، معتقدين بأن هذا هو الأفضل.

لكن الوضع بأكمله مع هالي أثبت له خطأه. الخاتم وعرض الزواج، متبوعاً بحادث اصطدام بول، قد أيقظ فنسنت من نوم عميق.

الدكتور موروا لا يعرف ذلك، لكنه عندما تحدث عن خطر استمرار بول في رؤية العالم من خلال مثاليته، كان وكأنه يصف فنسنت.

مهما كانت العواقب، ولداه بحاجة إلى معرفة الحقيقة ليفهما السبب

الذي جعله يتحول إلى غول ليلة الخميس الماضي.

لقد صمم أن يفتح قلبه لولديه عند عودتهم إلى الديار، وثم يحطّم صمتاً دام ثمانية عشر عاماً.

* * *

- أوه...

أخذت هالي تعبّر عن بهجتها عندما دخل فنسنت بسيارته الفخمة من البوابة إلى مزرعة رولاند. صفوف بعد صفوف من كروم العنب الغضة تمتد موازية لطريق تؤدي إلى قصر من طراز القرن السابع عشر يبدو من بعيد.

كان القصر مبنياً بطراز هندسي ذكّرها بحكاية «سندريللا». وكانت الأشجار المشمشية اللون تلمع بجنب النباتات الخضراء. وأخذت تغمض عينيها ثم تفتحهما خوفاً من أن يكون ما تراه مجرد حلم.

- هذا حقيقي. لقد أخبرتك أنه رائع الجمال.

لقد قرأ بول أفكارها، من اللحظة التي غادر فيها الطائرة وهو يجلس بجانبها في المقعد الخلفي من سيارة والده.

هزت هالي رأسها وما زالت الرهبة تتملكها إزاء هذا الجمال الرائع. وقالت له: «لا عجب في لهفتك إلى العودة. هذا هو الفردوس بعينه».

كانت تجلس خلف فنسنت. وخلال الساعة التي استغرقتها الرحلة من المطار تلاقت نظراتهما في مرآة السائق العاكسة. ظاهراً، كان يبدو مسترخياً، ومع ذلك عكست عيناه مزيجاً من الألم ومشاعر أخرى لم تفهمها.

وفجأة، أنزلت مونيك زجاج نافذة السيارة، ثم هتفت صائحة بحماسة بالغة وهي تلوّح بيدها: «جدي».

ثم قالت لأبيها: «أنزلني هنا، يا أبي. أرجوك».

أوقف فنسنت لها السيارة فقفزت منها واندفعت راكضة. ورأت هالي في الفناء رجلاً عجوزاً وكلباً.

- بوريغار..!

صاحت مونيك باسم الكلب البعيد فاندفع نحوها يعدو بسرعة جعلت هالي تشك في أن قدميه كانتا تلمسان الأرض. . . وسرعان ما كانا يغيبان في عناق طويل.

استحال ضحك هالي إلى دموع هادئة عندما رأت اجتماع الشمل البهيج هذا. وكان الجد موريس قد وصل إليهم الآن، فالتفّوا جميعاً حول بعضهم البعض في عناق كبير.

نظر فنسنت من فوق كتفه إلى ابنه وقد اغرورقت عيناه بالدموع: «أتريد أن تنزل وتنضمّ إليهم أم ما زلت تشعر بالدوار؟».

قررت أن الوقت حان لينفرد بأبيه عدة دقائق: «أنا، في الحقيقة، أريد أن أخرج من السيارة وأتمشّى قليلاً، يا بول. أنا لم أمشِ قط في كرم عنب من قبل».

ودون أن تنتظر جواباً، فتحت باب السيارة وقفزت إلى الخارج وأغلقته خلفها. كان الهواء رقيقاً والسماء زرقاء تغطيها رقع من الغيوم التي تراها عادة في الصور الزيتية.

شعرت وكأنها استقرت على لوحة فنان في آخر مرحلة من رسمها.

بدلاً من السير في الطريق، اختارت أن تسير بين صفين من العرائش الطويلة.

فكرت في أن فنسنت ولد هنا وعمل في الأراضي والكروم، ومن قبله أبوه وجدّه. هذا الإرث الفريد قد جعل منه رجلاً غير عادي بالرغم من الألم الذي عاشه تحت حكم أب كانت إرادته هي القانون.

رآها الكلب قادمة، فاندفع إليها يتفحصها، فحكّت خلف أذنه: «مرحبا، يا بوريغار. إنك أظرف مما قاله عنك التوأمان».

لعق يديها ثم ركض حولها بينما هي تتقدم نحو الشخصين اللذين ينتظرانها.

كان العجوز الفرنسي بمثل طول فنسنت لكنه منحني الظهر قليلاً. وكان يلبس طاقية على قمة شعره الرمادي الكث بشكل غريب، وكنزة فضفاضة.

غمزها الجد موريس من نفس العينين البنيتين اللتين أورثهما لأسرته. كانت الوسامة وراثية في أسرة رولاند.

- لقد أحبك الكلب. انظري إلى ذيله كيف يتحرك.

وضحكت الفتاتان قبل أن تمدّ يدها لتصافحه: «أنا سعيدة بالتعرف إليك، يا سيد رولاند. الولدان يتحدثان عنك باستمرار».

كانت نظراته ودية، ومع ذلك تفحصها وكأنها لغز حاول أن يحله: «مرحبا بك في سانت جينز، يا آنسة».

- سأقيم هنا فترة، أرجو أن تدعوني هالي.

فكرّر: «آلي».

فقالت مونيك: «لا، إنه هالي. عليك أن تلفظ حرف الهاء».

فهزت هالي رأسها: «هذا غير مهم يا مونيك. يمكنكم جميعاً أن تدعونني كيفما يحلو لكم».

فقال الرجل العجوز: «يعجبني موقفك هذا».

- وأنا أحب وجودي هنا.

تنفست بعمق ثم نظرت حولها قبل أن يستقر نظرها على مونيك: «هل تتذكرين فيلم صوت الموسيقى الذي ذهبنا لمشاهدته مرة؟».

فأومأت مونيك: «طبعاً».

- هل تتذكرين ما قاله «العم ماكس»؟ (أوه. . . أنا أحب أن أكون بقرب الناس الأغنياء. أحب طريقة حياتهم وأحب طريقة حياتي عندما أكون معهم).

فأومأت مونيك ضاحكة، فقالت هالي: «هذا بالضبط ما أشعر به الآن».

ألقى الرجل العجوز برأسه إلى الخلف وقهقه ضاحكاً، ما جعل الكلب ينبح ويدور بين سيقانهم.

- ما الذي يضحككم بهذا الشكل؟

كان فنسنت قد لحق بهم بعد أن نزل من السيارة وتبعه بول.

وأخبرتهما مونيك بخلاصة الحديث وعقب الجد بقوله: «ذلك مضحك خصوصاً وهو يأتي من فم راهبة».

بدت على وجه فنسنت أكبر ابتسامة رأتها منذ تعرفت إليه. وأدركت أن قلبها لن يعود كما كان.

- هالي لم تصبح راهبة بعد، يا جدي.

التفت الجميع ونظروا إلى بول الواقف قريباً منهم. فقال الجد وهو يضع يده على قلبه: «المهم هو وجودك هنا، يا بول».

تقابلت نظرات فنسنت وهالي لحظة أرسل لها فيها رسالة خاصة، كان جده يعرف الموضوع وكان يحاول أن يساعد. وقال الجد يخاطب بول: «تعال إلى معانقة جدك. لقد اشتقت إليك بعد هذا الفراق الطويل».

ابتلع بول ريقه بصعوبة: «وأنا اشتقت إليك أيضاً».

كانت ملامحه متخشبة حتى عانقه جده، عندئذ لاحظت هالي أن ذراعيه اشتدتا حول الرجل العجوز الذي لم يلبث أن قال له: «أنا فخور بك إذ حللت الثاني في أصعب مدرسة داخلية في باريس. هذا يستلزم احتفالاً».

- مونيك جاءت الأولى في مدرستها.

فقالت مونيك بتواضع: «بزيادة ثلاث علامات فقط».

ومرة أخرى وجدت هالي نفسها مركزاً لنظرات فنسنت، لقد أوما بشكل لا يكاد يلحظ وكأنه يقول إن هناك تقدماً بسيطاً. ذلك أن بول عاد يتكلم مع كل شخص.

- صفك اللاتيني هو أصعب بكثير من صفي، يا بول. لو أن هالي لم تساعدني في القواعد لكنت فشلت.

ترك الجد موريس بول وأخذ يشعث شعرها: «اعتاد الكاهن هنا أن يعلمنا اللاتينية. ولا أستطيع القول إن ذلك أفادني».

بدا الملل البالغ على بول من هذا الحديث، وقال: «هيا بنا، يا هالي أريد أن أريك ما يحيط بالقصر».

- هذا ما أحبه، ولكن هل تمانع في أن أغسل يدي ووجهي أولاً؟.

احمر وجهه: «طبعاً لا، سأدخل لك حقائبك من السيارة».

فقال له جده: «الأفضل أن تدع ذلك لغاستون، يا بول، فأنت خارج لتوّك من المستشفى».

فحملق بول فيه: «أنا لست معوّقاً».

- قد تصبح كذلك إذا لم تستمع إلى صوت العقل. تعال معي فهناك ما أريد أن تراه.

بينما أخذ بول يتردد، وقفت مونيك على رؤوس أصابعها تقبل أباها وجدها، ثم تأبطت ذراع هالي: «سآخذك إلى غرفتي ما دمت ستنامين فيها».

فقال بول: «لليلتين فقط. وبعد ذلك ستصبح لديها غرفتها الخاصة في أحد الأكواخ. لقد اتصلت ببرنارد من باريس، وهو مستعد للعمل فيه».

فتمتمت مونيك: «أعلم هذا. سنقابلك في الطابق الأسفل بعد فترة قصيرة. هيا بنا يا بو!».

واجتازتا الفناء والكلب بو في أعقابهما.

تملك هالي السرور للنجاة من ذلك التوتر. لم تحسد فنسنت لاضطراره إلى توخي الحذر التام في التعامل مع ابنه منذ أخرجوه من المستشفى.

أما الجد فكان قضية أخرى. فهو بإمكانه أن يقول ما ينبغي أن يقال، دون الخوف من التوبيخ.

وتملكت هالي رجفة لاحظتها مونيك بسرعة: «ماذا حدث لك؟».

- وماذا يمكن أن يحدث لي في مثل هذا المكان الرائع الجمال؟ مجرد تفكيري في أنك ولدت ونشأت هنا...

- كوني صادقة، يا هالي. هنالك أشياء كثيرة سيئة نعرفها، نحن الاثنتين. أنا أعرف أن أخي مريض. لقد أخبرني الطبيب. ولكن من الصعب الإقتراب منه عندما يكون مزعجاً بهذا الشكل.

- أنا أدرك شعورك.

تباطأت الفتاة في سيرها وسألتها: «هالي..؟ لماذا جئت في الحقيقة؟».

كانت هالي تنتظر هذا السؤال، وستخبرها بالحقيقة قدر إمكانها: «عندما

علمت أن بول ألقى بنفسه عمداً أمام الشاحنة، شعرت بأنني ملامة جزئياً على ذلك. لكن اللوم الأكبر يقع على عاتق أبيك. إنه آسف جداً على تصرفه ذاك. إنه يتألم حقاً وهذا يؤلمني. وقد تحدثت عن ذلك مع الأم ماري - كلير، فوافقت على أن أرجىء عودتي إلى كاليفورنيا وذلك لكي أدع أخاك يرى أنني لا ألوم أباك. بول بحاجة إلى أن يفهم ذلك ويصفح عنه، وإلا لن يعود أيّ منهما سعيداً مرة أخرى، فإذا كان هناك ما يمكنني أن أفعله للصلح بينهما، سأفعله. إن فد. . . أعني أباك، نادم على ما فعله تلك الليلة أكثر مما تتصورين».

حدّقت مونيك إليها لحظة طويلة قبل أن تومىء برأسها.

دخلتا القصر حيث قدمت مونيك إلى مدبرة المنزل إتفيج وزوجها غاستون. واحتفى الإثنان، اللذان يكبرانها سناً، بها وكأنهما جدان محبّان.

كانت هالي قد زارت قصر فرساي في باريس وقصور الأرياف مع التوأمين أثناء وجودها في فرنسا، وكلها كانت رائعة، لكن هذا القصر كان غير عادي في روعته لأن أسرة رولاند تعيش هنا.

فنسنت يعيش هنا.

ذهلت، وهي تقف على الأرض الخشبية المزخرفة، للمشاعر التي تمتلكها لمجرد التفكير فيه. وسمعت صوت مونيك يتجاوب في رأسها.

(هالي؟ لماذا جئت في الحقيقة؟)

تمنت هالي لو أن ذلك حقاً السبب الذي ذكرته، ولو تتمكن فعلاً من إصلاح الوضع. كانت تريد لنظرية الدكتور موروا أن تنجح.

ولكن ماذا لو كان هناك أسباب أخرى؟

ماذا لو كان فنسنت نفسه جزءاً من السبب؟

ماذا لو أنها جاءت لكي. . .

لا. . . لا يمكنها أن تفكر بتلك الطريقة. إنها لا تجرؤ على ذلك.

- هالي؟

ونشلها صوت مونيك من أفكارها المعذبة: «آسفة لإبطائي. هناك الكثير

للتفرج عليه. رأسي يدور».

وأسرعت لتنضم إليها في الطابق التالي. أخبرتها مونيك بأن جناحها يقع على يسار السلم، بينما جناحي بول وأبيهما على اليمين. أما جناح الجد فهو في الطابق الرئيسي وبذلك لا يكون مضطراً إلى صعود السلم.

بجانب غرفة النوم الزرقاء والبيضاء البالغة الاتساع والحاوية على سريرين كبيرين ومدفأة، كان هناك حمام كبير قد جدّد بشكل عصري، وغرفة جلوس تحوّلت إلى مكتب فيه كمبيوتر.

قالت هالي بعد أن خرجت من الحمام بعد دقائق: «هذا الجناح أكبر من معظم بيوت الناس».

- هذا ما يقوله أصدقائي عندما يمضون ليلة هنا. إنني أقيم هنا حفلات كبيرة للغاية وكل مدعو يحضر معه حقيبة لوازمه لقضاء الليل. ولهذا كان النوم في غرفة صغيرة في المدرسة في باريس، أمراً صعباً. إنني أعشق المساحات الواسعة هنا.

كانت مونيك الآن جالسة وسط السرير، محتضنة وسادة. وكان الكلب قد صعد إلى جانبها حيث وجد لعبة أخذا يلعبان بها معاً.

تمشّت هالي إلى إحدى النوافذ. كان مشهد الكروم من الجمال بحيث يمكنها أن تستمر في النظر إليه إلى الأبد. ومن زاوية عينيها لمحت بول وجده سائرين إلى مجموعة المباني الخارجية. ولم يكن هناك أثر لفنسنت.

تألم قلبها لأجله. كان ينتظر، بلهفة، عودة ولديه إلى البيت، وإذا بذلك يستحيل إلى كابوس يمكن أن يستمر وقتاً طويلاً.

في منتصف أفكارها، سمعت رنين التليفون فالتفتت لترى مونيك تتناول السماعة عند جانب السرير. وما إن هتفت (سوزيت) حتى أدركت هالي أن المكالمة ستطول.

سوزيت هي أفضل صديقة لمونيك في سانت جينز. وهما تتصلان دوماً ببعضهما بواسطة الإنترنيت لكي تبقيا على اتصال.

إن مونيك بحاجة ماسة إليها الآن، كما أن بول بحاجة إلى أن يكون مع

أصدقائه الحميمين.

أشارت إلى مونيك متمتمة أنها ذاهبة إلى الطابق الأسفل، ثم غادرت الغرفة عازمة على القيام ببعض الإكتشافات. لكنها لم تصل إلى السلم حتى رأت فنسنت صاعداً الدرجات الرخامية.

كان يصعد درجتين كل مرة بتأن وقلة اهتمام. وعندما رآها تقف عند القمة، أبطأ في صعوده.

- هالي...

ومن خلال عينين ضيقتين أخذ يتأمل ملامحها وقوامها. ربما لأنه لم يكن يتوقع رؤيتها واقفة هناك، فوجىء بذلك. ومهما كان السبب، فقد جعلها تأمله لها ترتجف.

قالت، آملة أن لا تبدو متوترة: «مونيك تتحدث تليفونياً مع سوزيت، فرأيت أن أجول فترة في الأرجاء. هل هذا صواب؟».

- طبعاً، طالما أنت هنا أريدك أن تتصرفي وكأنك في بيتك.

دعك صدره بذهن شارد، وهي حركة لاحظتها منه عندما يفكر متأملاً في أمر جاد: «وعلى كل حال، ما دمنا وحدنا الآن، هناك شيء هام أريد أن أحدثك به».

شعرت بقلبها يخفق قلقاً: «هل تحدثتما أنت وبول بعد أن غادرت أنا السيارة؟».

فأظلم وجهه: «لا، بل ساد صمت مطبق كان أسوأ بكثير».

فعضت شفتها: «لا بد أن هذا كان صعباً عليك».

فأومأ: «لا يمكننا الحديث هنا. تعالي معي».

وكما فعل من قبل، أمسك بمرفقها وقادها في الردهة مجتازاً عدة غرف إلى باب فرنسي الطراز يؤدي إلى غرفة جلوس تحتوي على مقاعد وأرائك جلدية ولوحات تمثل مشاهد من المزرعة يبدو أنها رسمت في عهود مختلفة.

جذب انتباه هالي لوحة أخرى تمثل رجلاً نبيلاً طويلاً نحيلاً عابساً ذا شعر أسود وعينين أشبه بشقين. وأسفل اللوحة كان طبق نحاسي حفر عليه

اسم (الدوق دي رولاند).

قال صوت عميق خلفها: «مونيك تظن شكله مخيفاً. وهكذا تضع صورته هنا بدلاً من المكتبة كيلا يخيف الضيوف».

صدرت عنها ضحكة رقيقة، بينما تابع يقول: «كان رجلاً مخيفاً من كل النواحي. أظن أن أبي لا بد ورث بعض الجينات منه. بعد ليلة الخميس، أنا واثق من أن أولادي يقولون نفس الشيء عني».

فتلاشت ابتسامتها. لم يكن إحضاره لها إلى هذه الغرفة من وحي المصادفة. واستدارت إليه: «ما الذي فعله أبوك ليجعلك تحمل مثل هذا الحمل الثقيل طوال هذه السنوات؟».

كان رأسه منحنياً بحيث لم تتمكن من رؤية العذاب على وجهه، لكنه كان موجوداً في صوته المتهدج: «كان أبي صعباً، لكنه لم يكن ملاماً للأخطاء التي ارتكبتها أنا. فقد كانت أخطائي وحدي».

فاقتربت منه: «ما هي تلك الأخطاء؟».

٥ - اعترافات جريحة

- عندما دخلت الغرفة التي كنت فيها أنت وبول، شعرت وكأن السنوات عادت بي إلى الوراء وعدت إلى السابعة عشرة مرة أخرى. . . في سن بول تقريباً. رأيت نفسي في غرفة النوم في كوخ أحد عمّال كرومنا. وبدلاً من خاتم بجوهرة فيروزية اللون تساوي تسعة آلاف دولار، كان هناك قرطان متألقان من الماس يساويان خمسة آلاف دولار اقترضتهما مقابل قطعة أرض لأزيّن أذنيّ حبيبتي.

آه. . . لا! وغرزت هالي يديها في المقعد، بينما كان يتابع:

- الفرق الوحيد هو أن المرأة التي كانت بين ذراعي كانت ساحرة جمالها لا يصدّق، بشعر أسود كالليل وليس ذهبياً كشعرك، كانت أرليت تكبرني بتسع سنوات، أكبر منك الآن بسنة واحدة فقط.

وكان تقدير هالي لهذا التشابه أكثر من تقدير أي شخص آخر.

- وكانت قد ترمّلت لتوّها بسبب إصابة زوجها بنوبة قلبية.

وكذلك راؤول، زوجها هي، مات بسرعة. كان التشابه يزداد قوة من لحظة لأخرى.

- اهتمام أرليت أشاع الغرور في نفس غلام ابتدأ لتوّه يختبر هذه الأمور. وعندما دعتني إلى السباحة معها في عصر أحد الأيام، أثر بي تجاوبها المحموم.

أحنت هالي رأسها، محاولة أن تكافح الصور التي أخذت كلماته تعيدها إلى ذهنها، بينما كان هو مستمراً في الكلام: «عندما رأيت الرجال الآخرين يحومون حولها، يراقبونها أثناء النهار، لم أستطع السيطرة على

غيرتي. وفي ستة أشهر أو نحوها، صرت أسير سحرها. لم يكن لديّ ما يكفي لكي أثبت لها مقدار حبي بالإضافة إلى الماس. أعطيتها نقوداً لكي تدفع أجرة الكوخ وتتمكن من البقاء في المزرعة، ومع الوقت أصبحت أنا المعيل لها كلّياً. أهملت دروسي وعمل الأسرة وأصبح كل ذلك عديم الأهمية بجانب سحرها الآسر».

ورنّت كلمات بول في أذني هالي (أنت لست بحاجة إلى العمل. أنا سأهتم بك).

التقط فنسنت نفساً مرتجفاً ورفع رأسه. وعادت هالي تصغي إليه مبهورة وهو يعرّي روحه: «كنت أتسلّ في الليالي، بعد حلول الظلام، لأكون معها. كنت أعتقد أنني ماهر للغاية. بحيث لم يعلم أحد بزياراتي الليلية. وعلى كل حال كانت صحة أبي تتراجع من مرض في الكبد. وكان جدي في عالمه الخاص، حزيناً لموت جدتي بالتهاب رئوي».

كذلك بول أبقى أمر هالي سراً عن أبيه، ولأن مونيك تحبه فقد وافقته على ذلك.

- كانت الإثارة تتملكني طوال النهار لأنني كنت أعلم أنني سأكون في الليل برفقتها. ولم أدرك أن ابي كان يعلم كل شيء عن علاقتنا، إلا بعد أن قارب الموت. عند ذلك نبهني إلى أنها تسعى فقط وراء ثروة رولاند، وأن عليّ أن أتركها. لكنني ظننت أن كل ما قاله هو مجرد هذيان رجل لم يعرف كيف يكون سعيداً ولا يريدني أن أكون سعيداً، أنا أيضاً. بعد ذلك بأسابيع، أدهشني بطلبه مني قبل موته، أن أصفح عنه. وبعد الجنازة، صممت على الفور على الزواج من أرليت، لكن الكاهن أخبر جدي، الذي كان سنداً بالنسبة إليّ، فلم يساعدني هذه المرة. وبدلاً من ذلك أخذ يعيد على مسامعي كل الكلام الذي قاله أبي لي عن أرليت وأكثر منه بكثير. ويبدو أنه كان يعلم بأنها هربت من بيت أسرتها وهي صغيرة السن وصاحبت من الرجال أكثر مما استطاع أن يحصيه. وبعد أن أخبرني بأنها لا تستحق حبي لها، منعني من رؤيتها وهدد بأنه سيتبرأ مني.

«في ذلك الحين لم أهتم مثقال ذرة بماضيها أو بإرثي. كل ما كنت أريده هو أرليت. وعندما أخبرتها بأننا سنهرب ونتزوج بعيداً، وأنني وجدت عملاً في مكان ما، أخبرتني بأنها حبلى.. لا يمكنك أن تتصوري فرحتي. شعرت وكأن العالم بأسره بين يدي. سيمكننا الآن أن نتزوج ويباركنا الجد موريس الذي يريد أن يشارك حفيده القادم الحياة. وهكذا عقد الكاهن قراننا. لكن سعادتي لم تدم طويلاً. لن أرهقك بالتفاصيل المملة، وسأخبرك فقط بأنها لم تعد تستقبلني قط في فراشها. ظننت في البداية أن ذلك بسبب الغثيان الصباحي. لكنني سرعان ما علمت بأنها كانت تترك القصر أثناء النهار لتكون مع رجال آخرين».

لم يعد سبب غضب فنسنت وثورته، غامضاً الآن. وتابع يقول: «عندما واجهتها بالأمر، اعترفت بأنها استغلت غلاماً هائماً مثلي فقط لتحصل على ما تريد. ومنذ ذلك الحين فصاعداً ابتدأت كوابيس الشجار بيننا. أوشكت أن أتركها في إحدى المناسبات عندما اعترفت أنها لم تنجذب إليّ قط ولم تتزوجني إلا لثروتي. هددتها بأن أقطع عنها مخصصاتها المالية فهددتني بأن تجري عملية إجهاض للجنين».

فتمتمت هالي بألم: «فنسنت... لقد فهمت الآن لماذا سألتني إن كنت حبلى».

فنظر إليها بحدة: «الفرق هنا هو أنني أواجه ملاك الرحمة بدلاً من امرأة انتهازية منحلّة مثل أرليت».

ملاك! إنها كل شيء عدا ذلك.

وأغمض عينيه لحظة: «كدت أفقد عقلي لأن الطفل، حينذاك، أصبح يعني لي كل شيء. كان يمثّل كل ما هو حسن وطاهر وغير ملوّث في زواجنا الزائف المشؤوم، ولكي أمنعها من قتل ابننا، بلغ بي اليأس حدّ الذهاب إلى الجد الذي أشفق عليّ فأخذني إلى محامي الأسرة الذي كتب سنداً قانونياً يصرّح بأن ميراثي من كروم العنب يصبح ملكاً لها في اللحظة التي يولد بها الطفل. واشترط كذلك بأنها حالما تعود إلى البيت من المستشفى، سيكون

عليها أن تغادر المزرعة ولا تحاول أن تراني أو ترى الطفل مرة أخرى».

فسألته هالي بذهول: «وهل وافقت على ذلك؟».

– آه، نعم. وافقت بلهفة وجشع ما محا أي أثر لشعور أو عطف كنت ما أزال أضمره لها في أعماقي، لقد مكثت بعد الولادة في المستشفى، ولهذا لم تأخذ أياً من التوأمين بين ذراعيها قط.

هزت هالي رأسها مشتتة الذهن: «لكن ولديك أخبراني بأن أمهما ماتت عند الولادة».

– هذا ما أردتهما أن يعتقداه.

– وهل ما زالت حية؟

– لا، والحمد لله.

– لم أفهم.

– بعد أقل من عام، علمت من محامي الأسرة أنها أنفقت كل ثروة الأسرة، ثم قتلت في اصطدام قطار في «كورتينا»، مع آخر عشاقها. وقد تلقيت الخبر بابتهاج لأنني تأكدت حينذاك من أنها لن تستطيع أن تنكث العهد بعد ذلك أو تضر بالولدين. وابتدأت أعود إلى الحياة الطبيعية بعد ذلك.

حدقت هالي إليه: «كنت صغير السن لمثل تلك المعاناة التي تحطم القلب. لا أستطيع أن أتصور ذلك».

– لا تتأثري لأجلي. رغم أنني جلبت كل ذلك لنفسي، فقد تلقيت العون الذي أحتاجه. لم يكن الجد يشعر نحوي بولع خاص، حينذاك. ولكن تملكه الحب من أول نظرة حالما حمل بول ومونيك بين ذراعيه.

انهمرت دموع هالي وهي تتصورهما مع الطفلين.

– لقد بعنا نصف كروم العنب لكي ندفع المبلغ لأرليت، لكننا ما زلنا نحتفظ بالنصف الآخر والقصر. واستطعنا، نحن الاثنين، أن نربي الطفلين وندير العمل. وكان الجد يتخذ دور المربية للطفلين لكي أتمكن أنا من حضور صفوف الجامعة في بوردو. وعندما تلقيت شهادتي الجامعية في إدارة

الأعمال، أخذت أعمل ليلاً نهاراً لكي يزدهر عمل المصنع. وشيئاً فشيئاً استعدنا ما خسرناه، وركّزت اهتمامي على أن أكون أفضل أب ممكن أن أكونه. قررت أنه عندما يكبر الولدان إلى حد يسألان فيه عن أمهما، لن أخبرهما بأنهما نتيجة حبل غير شرعي بل بأنها ماتت قبل أن تستطيع تربيتهما. ذلك أنني لم أشأ لهما أن يتألما أو أن تترك الحقيقة أثراً على حياتهما.

مسحت هالي دمعها عن خديها. يا لها من مأساة!

رقّت ملامحه حين رأى خديها المبللين: «حدث ذلك منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً يا هالي. لقد عشنا معاً، نحن الثلاثة، حياة رائعة بعد ذلك».

– تعني حتى الخميس الماضي. كان عليّ أن لا أسمح لمونيك بأن تقنعني بالذهاب إلى شقتك. لكنني كنت أحب أن أكون معهما كثيراً، فرأيت أنها ستكون آخر مرة ولن يحدث أي ضرر.

فهز فنسنت رأسه: «إنها ما كانت لتكون آخر مرة. أنا أعرف ابني، كان سيلحق بك إلى كاليفورنيا. لكنه وجد طريقة مأساوية للغاية لكي يحصل عليك هنا في سانت جيتز».

كان على صواب في هذا. ووقفت تقول: «عليك أن تخبر ولديك بما أخبرتني به».

– هذا ما قررته. لكنني أريد موافقتك أولاً.

فسارعت تقول بعطف: «إنها لك، عندما يسمعان قصتك سيفهمان كل شيء. سيدرك بول أنك كنت تحاول أن تمنع التاريخ من أن يعيد نفسه، وسيصفح عنك. وكذلك مونيك».

– أتعنين أن الحقيقة ستحررهما؟

– نعم.

– قد يكرهاني لأنني كذبت عليهما بشأن قصة أمهما طوال تلك السنوات.

– سيكون عليهما أيضاً أن يكرها الجد موريس لأنه اشترك في الكذبة.

– هذا مستحيل فهما يعشقانه. وعلى كل حال، إذا كنت تعلّمت شيئاً مما حدث فهو أنني لم أخدم مصلحة ولديّ بمحاولة إنشاء عالم كامل لهما. بول يعتقد بأنه إذا أراد شيئاً، فبمجرد أن يتمناه، يحصل عليه. هكذا كنت أنا في سنّه.

نظرت هالي إليه متفحصة: «ربما هذا هو سبب طلب أبيك منك الصفح. ربما أدرك مبلغ الضرر الذي ألحقه بك حين قيّد حريتك. لو أنه منحك بعضاً منها، لكنت عشت حياة طبيعية، كأصدقائك، وبالتالي ما كنت لتحصل على ولدين مثل بول ومونيك. أنا لا أستطيع أن أتصور هذا العالم من دونهما».

فقال بصوت أجش: «ولا أنا».

دست يديها في جيبي تنورتها: «متى ستخبرهما؟».

– كنت أفكر في التحدث إليهما هذا المساء بعد العشاء.

– أنا مسرورة لذلك.

– أتصور أن قول الحقيقة في هذا الوقت يساهم في عودة الثقة والإلفة إلى أفراد العائلة.

كان إعجاب هالي به يتزايد: «أريد أن أساعد حيث أستطيع. أخبرني... هل يحسن جدك بعض ألعاب الطاولة كالشطرنج، مثلاً؟».

– نعم. هذه إحدى هواياته المفضلة. لماذا؟

– أثناء العشاء، سأقترح مباراة. ذلك سيحبط محاولة بول التنزه معي بعد العشاء أو ما أشبه. بهذه الطريقة سيكون حراً في أن ينضم إليكما، أنت ومونيك، للاستماع إلى حديثك.

رأت شيئاً يومض في أعماق عينيه: «هذه فكرة رائعة...»

– بابا؟ أين أنت يا بابا؟

التفتا لسماعهما صوت مونيك الذي بدا وكأنه خلف الباب.

– أنا قادم، يا صغيرتي.

والتفت إلى هالي: «هل نذهب؟».

امتثلت لأمره وتبعته إلى الممشى. ولكن في اللحظة التي رأت النظرة الفضولية التي رمقتهما بها مونيك، تملكها شعور غريب للغاية هو أشبه بشعور من يُضبط وهو يرتكب خطأ.

ولم يُظهر فنسنت ما إذا كان لاحظ ذلك وهو يحتضن ابنته: «هل لديك فكرة عن سعادتي في أن أسمع صوتك في هذه الردهة مرة أخرى؟ ما هو شعورك عند عودتك إلى البيت؟».

- إنني أحبه للغاية.

- ما هي أخبار سوزيت؟

وانحنت هالي تربت على رأس الكلب قبل أن تتبعهما إلى السلم، وهذا أراح ذهنها نوعاً ما.

هتف بول وهو يخرج من غرفة مونيك: «أهذا أنت؟ بحثت عنك في كل مكان، يا هالي».

فعاد إليها الشعور بالذنب: «كان أبوك يريني لوحة الدوق دي رولاند الشهيرة. كنتما أخبرتماني بأن عائلتكما تنحدر من الأسرة المالكة، لكنني كنت أتخيّل شخصاً مختلفاً تماماً».

ابتدأوا يهبطون السلم. وقالت مونيك من فوق كتفها: «ذلك الرجل بشع، وأنا لا أصدق أنه قريبنا».

ضحك أبوها بصوت هادىء، لكن وجه بول بقي جامداً.

استقبلتهما إتفيج في الردهة وأخبرتهما بأن مينو قد أحضرت الأكل إلى غرفة الطعام الصغيرة، وأضافت: «لقد أعدّت لك «الإسكالوب» وفطيرة الخوخ التي تحبينها، يا طفلتي».

هتفت مونيك بابتهاج: «منذ تسعة أشهر وأنا أنتظر أن أتذوق الطعام الذي تحضره. ستحبين طهيها كثيراً، يا هالي. لا أحد يصنع خبزاً مثل مينو. انتظري حتى تذوقيه طازجاً من الفرن... ها... لا... لا..»

وبعد نصف ساعة أدركت هالي أن مونيك لم تكن تبالغ بالنسبة إلى طهي مينو. لم تأكل طعاماً ألذّ منه قط. ومع أن بول بقي قليل الكلام، فقد

أتحفت مونيك كل شخص بقصة عن مغامراتها المدرسية.

كانوا يتناولون فطيرة الخوخ المتوقعة عندما استقبل بول زائرين، أدخلتهما إتفيج إلى غرفة الطعام. لقد انتشر خبر عودتهم من باريس، فجاء اثنان من أفضل أصدقائه من سانت جينز على دراجتهما النارية، متلهفين ليأخذاه معهما في نزهة.

دعاهما فنسنت إلى أن يجلسا أولاً ويتناولا معهم بعض الحلوى، فشكراه وجلسا إلى المائدة.

لم يبد على بول أي سرور، لكن أباه ستر قلة ذوقه هذه بأن أخذ هو مهمة التعارف: «جول، لوك، أقدم إليكما هالي لين. إنها صديقة للتوأمين من باريس».

كان الولدان نموذجين للمراهقين الفرنسيين بقميصيهما المقفلين وسترتيهما الجلديتين وحبهما للآخرين. ومع أنهما لاحظا صمت بول، فهذا لم يزعجهما.

استمتع لوك بإثارة غيظ مونيك التي كانت ترد له الصاع صاعين. أما جول فقد أثار ذعر هالي بإغراقها بالأسئلة. واقترح عليها أن تخرج معهم لقضاء الأمسية إذا لم يكن لديها شيء آخر تفعله.

فاعترض بول: «أريد الليلة أن أريها الكوخ الذي أعدّه لأجلها. ربما في ليلة أخرى، يا شباب».

فقالت هالي: «لا بأس بهذا، يا بول. يمكننا أن نتفرج على الكوخ غداً عندما لا يكون صديقاك هنا. أما الليلة فسأتعلم من الجد موريس أشياء أساسية في لعبة الشطرنج. أريد أن أتعلم أصول اللعبة وقد سمعت أنه خبير فيها».

فغمز الرجل العجوز بعينه: «سيسرني هذا. أما أنت يا بول فاخرج ومتّع نفسك مع لوك وجول».

تلاقت عيناها مع عيني فنسنت قبل أن تنتقلا إلى الجد: «قد لا يكون هذا ممتعاً لك، فأنا لست محترفة جداً في هذه اللعبة. لكنني أريد أن أصبح

ماهرة».

اختارت مينو هذه اللحظة لتحضر «الكيك» الذي التهمه الفتيان، وفي اللحظة التي انتهوا فيها، نهض بول عن المائدة وخرج الثلاثة من غرفة الطعام.

قال الأب: «تعالي يا ابنتي لنصعد إلى غرفتي. ثمة شيء أريد أن أتحدث عنه معك».

ونهض الجد ببطء: «سأحضر علبة أحجار الشطرنج وأعود. انتظريني يا هالي».

- سأنتظرك.

وضع فنسنت يده على كتف جده: «شيء ما يخبرني أنها تعلم عن الشطرنج أكثر مما تقوله لك».

- همم...

لوت هالي شفتيها ولم تجرؤ على النظر إلى مضيفها. حتى ولو كان عليه أن يجد وقتاً آخر يتحدث فيه إلى بول، إلا أنه ينوي أن يفضي بما يثقل قلبه إلى ابنته الليلة. وكان عمله هذا صواباً، لكنها ما زالت متوترة لأجله.

ودّعتها مونيك بإصبعها، كعادتها: «إلى اللقاء فيما بعد، يا هالي».

أجابتها بنفس الإشارة. وبينما كانت جالسة وحدها سمعت أصواتاً في الردهة. يبدو أن بول قرر عدم الذهاب مع صديقيه. وعندما لم يعد مباشرة إلى غرفة الطعام، أدركت أن أمنية فنسنت في أن يتحدث إلى ولديه معاً، قد تحققت.

تمنت هالي أن يكون الأمر كذلك. من الأفضل أن يخبر فنسنت ولديه معاً.

وبينما كانت تدعو الله بصمت أن يجعل الخاتمة على خير، عاد الجد بصندوق الشطرنج. كان العجوز متألقاً في هذه اللعبة وحضوره يبعث على السرور. شرح خطته بعدة حركات لتستطيع أن تتعلّم. وحوالى الحادية عشرة توقفا عن اللعب على أن يعودا إليه في اليوم التالي.

- هالي؟ هل أنت نائمة؟

كانت الساعة الثالثة صباحاً. بقيت هالي ساعات تنتظر أن تعود مونيك إلى سريرها، لكنها لم تشأ أن تعلم الفتاة بانتظارها لها....

فأجابت متصنعة النوم: «لقد صحوت الآن» وأنارت المصباح الذي بجانب السرير.

كانت مونيك قد ارتدت بيجامة طويلة فضفاضة. وكان وجهها ملطخاً بالدموع ما يدل على بكاء طويل.

- آسفة، لكنني بحاجة إلى التحدث معك.

- هيا، إذن، اجلسي على سريري.

وجلست هالي في السرير: «ماذا حدث؟».

- لقد أخبرنا هذه الليلة، أنا وبول، عن حياته، وعن أبيه و... عن أمنا.

حبست هالي أنفاسها متسائلة، عما بعد ذلك.

- قال لنا إنه أخبرك بكل شيء لكي تعلمي لماذا كان قاسياً نحوك بذلك الشكل في الشقة.

- أبوك رجل رائع. فقد كلّفه الحديث عن ذلك الماضي المؤلم كثيراً من الشجاعة.

أحنت مونيك رأسها: «دوماً كنت أتساءل عن السبب الذي منعه من الزواج مرة أخرى. لكنني كنت سعيدة لذلك لأنني لم أشأ أن تتغير أسرتنا. أتمنى... أتمنى لو أنني لم أعرف كل تلك الأمور».

وارتجف صوتها، فالتاع قلب هالي لأجلها. أرادت أن تحتضنها وتواسيها. لكنها، بدلاً من ذلك، لفّت ذراعيها حول ركبتيها وسألتها: «ما هو أكثر ما يحزنك في المسألة؟»

فأجابتها مونيك بعد لحظة: «هو خوفي من أن أصبح مثلها».

هذا دعاء آخر استجابه الله. مونيك لم تهاجم أباها.

- يجب أن تفاخري بأنك ورثت عنها جمالها الرائع الذي جذب أباك. لا

تنسي أنه عندما عرفها أحبها من كل قلبه. ومن المهم أن تعلمي، يا مونيك، أنك لا يمكن أن تكوني ورثت عنها نشأتها الشقية. يجب أن يتعلم الطفل المبادىء الصحيحة. لابد أن في أسرتها من الأخطاء ما جعلها تهرب من البيت. هذا هو السبب الذي جعلها بتلك الشخصية، ومن الواضح جداً أنه لم يكن لها أب مثل أبيك ليرشدها».

- ليس هناك شخص كأبي.

- أوافقك على هذا. وعندما تفكرين في ذلك حقاً، تجدين أن جدك، مهما كان حزمه وعناده، قام بكل ما يصلح ابنه ويجعله ممتازاً كما ترينه. لقد تلقيتما أنت وبول منه نوع الحب الذي يستحقه كل طفل. وهذا واضح جداً. فأنتما شخصان مميزان ورائعان. لقد جعلتماني أحبكما بينما لم يكن هذا مفروضاً بي».

واختنق صوتها. وساد الصمت الغرفة، ثم هتفت مونيك: «شكراً يا هالي، وأنا أحبك أيضاً».

وقبل أن تنتبه إلى ذلك، كانتا تتعانقان.

أخيراً انتقلت مونيك إلى سريرها، بينما أطفأت هالي الضوء قبل أن تنسل إلى تحت الأغطية، واثقة من أن مونيك ستكون بأحسن حال.

ولكن عندما فكرت بحالة فنسنت الذهنية، أدركت أنها لن تنام قط.

كان بول في مكان ما. من ذا الذي يعلم ما هي حالته بعدما عرفه عن أمه؟

ودست هالي وجهها في الوسادة وبكت.

* * *

تخلى فنسنت عن محاولة النوم في الفترة المتبقية من الليل. نزل من السرير ليأخذ حماماً ويحلق ذقنه. وبعد أن ارتدى «شورت» و«جينز»، كانت الساعة السابعة إلا ربعاً.

اتجه إلى الطابق الأرضي راجياً أن تكون هالي مستيقظة. إنهما بحاجة إلى حديث آخر بشأن ابنه الذي باح بالكثير من الأمور. في العادة، كانت ابنته

تكثر الأسئلة حول أي موضوع كان، ولكن ليس الليلة الماضية. وعندما انسلت أخيراً من الغرفة صامتة حزينة، شعر وكأن يد عملاق تعتصر الدم من قلبه.

وفي حين كان فنسنت مستعداً للجواب على أيّ سؤال يوجّه إليه عن أمهما حتى لا يبقى أي شيء غامضاً، تلقى صدمته التالية لتلك الليلة حين وجد أن ابنه يريد أن يتحدث عن هالي.

- أنا آسف لأن زواجك بأمي لم ينجح. لكنني لا أدري لماذا اضطررت إلى الكذب بهذا الشأن.

- من الواضح أنني أردت أن أحميكما.

- لا أحتاج إلى حماية منك. كثير من الفتيان في مدرستي في باريس لديهم قصص مشابهة. حتى والدة لوك فعلت نفس الشيء بوالده. هذا يحدث كثيراً.

وهز كتفيه بعدم اكتراث ما أذهل أباه.

- الأمر هو أن هالي ليست مثل أمي. أنا أعلم أنها أكبر مني سناً، ولكن هذا لايزعجني، كما أن فرق السن بينك وبين أمي لم يزعجك بكل تأكيد.

كان بول قد أصبح منطقياً للغاية في مدرسته الداخلية، هذا بالإضافة إلى سخرية بالغة غير مستحبة.

- وثمة شيء آخر عن هالي. لقد كانت متزوجة من قبل وكانت سعيدة!

وكانت هذه قنبلة لم يكن فنسنت يتوقعها. إذا كانت مونيك تعلم ذلك فهي لم تخبره به، ولم يعلم حتى لماذا يهتم كثيراً للأمر. ولكن ما يعرفه بالتأكيد هو أن هذا الخبر أزعجه بشكل غريب.

- وكانت ستبقى متزوجة به لو أنه لم يمت. وهكذا عليك أن تنسى أنها قررت فجأة أن تقيم علاقة مع شخص آخر.

وتوالت المفاجآت: «حتى الآن لا تعرف هالي ما تريده لكن كرامتها تمنعها من أن تعترف بذلك. هذا هو السبب في مجيئها إلى سانت جينز. لقد ابتدأت تحبني. ليس بالطريقة التي أحبت بها زوجها، ولكن بإمكاني أن

أنتظر حتى لا تعود ترى زوجها في كل مكان وتبدأ تراني أنا. لقد أصبحت هالي راهبة غير مكرسّة لكي تنسى ألمها عبر خدمة الآخرين. إنها لا تبدو كثيرة الشبه بأمي، أليس كذلك؟»

وألقى على أبيه نظرة جانبية ساخرة...

لن يصفح بول عنه لمهاجمته أخلاق هالي.

- أنا أحمد الله على أنها توجهت إليه وإلا لما عرفتها. لكنني واثق بأنها لم تخلق لتكون راهبة، وأنا سأثبت لك ذلك!

وصفق باب غرفة أبيه خلفه بشدة.

* * *

- إتفيج؟

عندما لم يجد فنسنت أحداً في غرفة الطعام، سار إلى المطبخ: «هل رأيت هالي؟».

- نعم، لقد ذهبت إلى المدينة منذ نصف ساعة.

فعبس: «وحدها؟».

- نعم.

- هل أخذها غاستون بالسيارة؟

- لا، قالت إن الصباح جميل جداً وهي تريد أن تتمشى.

- ألم ينزل أي من التوأمين بعد؟

- لا، هل أنت جاهز للقهوة والخبز؟

- ليس هذا الصباح. لدي عمل في «ليبورن». أخبري التوأمين بأنني سأعود للغداء.

- سأفعل.

وبعد دقائق، لمح امرأة شقراء من بعيد فأوقف السيارة خلفها. كانت تسير رافعة الرأس بخطوات سريعة وقد لبست حذاء خفيفاً، ثم اجتازت الجسر الحجري.

كانت قد ألقت سترة رقيقة من الصوف فوق بلوزتها وتنورتها. ومع ذلك

انجذب كالمغناطيس إلى قوامها الرشيق، إنها النوع الذي يعجبه في النساء الأمريكيات.

لم يحدث أن نظر فنسنت إلى امرأة رجل آخر قط. لكنه وجد نفسه يحسد ذلك الرجل الذي كان لديه الحق في أن يكون معها ليلاً نهاراً... ذلك الزوج الذي عرف كل تفاصيل حياتها...

معرفته بأنها كانت متزوجة قبل الالتحاق بجماعة الراهبات غير المكرّسات، غيرت طريقة تفكيره فيها.

قبل أن يقول بول ما قاله عنها، كان فنسنت يفترض فيه البراءة، وإذا به يرى أن هذه ليست الحقيقة، خصوصاً في حالة هالي، وربما في حالة بول.

أخذ ابنه يواعد الفتيات منذ كان في السادسة عشرة. ولكن على حد علم فنسنت، لم يكن هناك فتاة خاصة. وعلى كل حال هذا لا يعني أن بول لم تكن له تجربة مع فتاة محلية قبل أن يغادر إلى باريس.

وكان يرجو أن لا يكون ذلك قد حدث.

إنه يتذكر الصدمة التي أصابته عندما سمع أن ابنه ابتاع لهالي خاتم خطبة بتسعة آلاف دولار.

بول يحبها.

وعندما أدرك فنسنت إلى أي مدى سمح لأفكاره الحميمة عن هالي باقتحام وعيه شعر بالغثيان.

- فنسنت؟

أعاده صوتها إلى إدراك ما حوله، ولا بد أنها سمعت صوت سيارة خلفها فوقفت على جانب الجسر لتدعها تمرّ. لكنه وقف أمامها، فسارت إلى مقدمة السيارة وفتحت الباب: «هل كنت تبحث عني؟».

سبب له سؤالها هذا ارتباكاً حقيقياً. هل يكذب عليها ويقول لا؟ فهو يعلم أنه سيكون من الخطأ أن يمضي أي وقت معها على انفراد.

وأخيراً أجاب: «نعم. كنت أرجو أن أجدك في غرفة الإفطار لكن إتفيج أخبرتني بأنك تركت القصر».

- قررت أن أذهب إلى الكنيسة قبل أن أقوم بأي شيء آخر.

ربما هذا ما كان بحاجة إليه: «أتمانعين في أن نذهب بنزهة بالسيارة أولاً وبذلك يمكننا أن نتحدث، وبعد ذلك أذهب إلى الكنيسة معك؟».

خيّل إليه أنه لاحظ شبه تردد منها قبل أن توافق. وحالما دخلت السيارة استدار وعاد بها أدراجه على الجسر.

- هناك مكان جميل على ضفاف نهر «دوردوين» عليك أن تريه أثناء وجودك هنا.

ودار حول المنعطف التالي إلى طريق ضيقة. وبعد السير في منطقة ريفية خصبة إلى بقعة خصبة، أوقف السيارة.

كانت صفوف من عرائش العنب تمتد على ضفاف النهر. ورغم التيار السريع كان الماء يبدو كالزجاج، والأشجار المستديرة الشكل تتلاءم مع غيوم السماء.

نظر إليها خفية، متلهفاً إلى أن يعرف رأيها في هذا كله.. ومرة أخرى أخذ يسأل نفسه عما يجعله يريدها أن ترى ما يراه هو في هذا المشهد.

قالت محبوسة الأنفاس: «ما أجمل هذا! لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً. هل كنت تأتي إلى هنا...».

فقاطعها: «لا. أنا لم أحضرها إلى هنا أبداً. النهر عميق جداً وخطر».

- لم أكن سأتحدث عن أرليت، فأنا لست عديمة الاحساس إلى هذا الحدّ. وإنما ظننت أنه ربما هذا كان مكان السباحة المفضل لك ولأصدقائك في أيام الشباب.

يا إلهي، ما الذي حدث له؟

- آسف يا هالي. آخر ما أريده هو أن أجرح مشاعرك؛ الآن بعد أن علم التوأمان كل شيء عن أمهما، أريد أن أغلق الباب على ذلك الفصل من حياتنا إلى الأبد.

- لا ألومك لذلك.

- ولكن هل بإمكانك أن تصفحي عني؟

- كيف يمكنك أن تسألني هذا؟ ألا تدرك أنني صديقتك؟

ورأى في عينيها غضباً وحيرة.

صديقته؟

لكنه في أعماقه، يريدها أن تكون أكثر من ذلك بالنسبة إليه. إنه يريدها أن...

- أخبرني كيف كانت ردة فعل بول؟ هل تمنى لو أنك لم تحطم صورة أمه في خياله؟

- لقد تلقى بول الخبر بشكل أفضل كثيراً مما كنت أتوقع.

- وهكذا مونيك. آخر كلماتها، قبل أن تنام، كانت: (ليس هناك من هو أحسن من بابا).

- شكراً لأنك أخبرتني بذلك. كنت أتمنى لو كانت الأمور بهذه البساطة مع بول.

واشتدت يداه على عجلة القيادة.

فبهتت ملامحها: «لا أفهم. ظننت أن بول قد صفح عنك وأنه عاد يتحدث إليك من جديد. ما الذي حدث الآن؟»

- صحيح أننا وصلنا معاً إلى مرحلة اعترف فيها بوجودي على الأقل، لكنني أخشى من أننا سنضطر إلى أن نلغي نظرية الدكتور موروا، ونضع خطة أخرى.

- لماذا؟

- لقد دخل في الأمر عنصر جديد لم نكن نعرف أنا والطبيب عنه شيئاً أثناء حديثنا في المستشفى.

- وما هو؟

- زواجك السابق.

فأحنت رأسها.

منذ معرفته بهالي، وهو معجب جداً بهدوئها الخارجي. ولكن رؤيتها الآن تقبض أصابعها بشكل غير متوقع يظهر أنها بالكاد تستطيع ضبط

نفسها.

كان فنسنت يعرف كل شيء عن تلك الحالة المشوّشة. ولسبب يتعذّر تفسيره، أعجبته فكرة إخراج هالي عن صمتها وهدوئها المعتادين.

- والآن، بعد أن عرف بول أنك كنت امرأة بكل معنى الكلمة، اقتنع بأنك لست من نوع الراهبات. وبالعكس، إنه يرى اهتماماتك ورغباتك تحدياً لا يقاوم وليس خياراً قائماً على قناعات شخصية.. وقبل أن يغادر غرفتي، أوضح أنه يسعى إلى أن يصبح مهماً بالنسبة إليك بحيث لا تعودي ترين في أي مكان وجه زوجك بل وجهه هو.

٦ - متفاهمون ولكن...

يا لها من سخرية أن يتمنى بول شيئاً لن يحدث أبداً، ولا يمكن أن يحدث!

ليس عندما يكون وجه أبيه الجذاب هو ما ابتدأت هالي تراه كل ليلة في أحلامها. كان صوت فنسنت العميق هو الذي تصغي إليه على السلم ورائحته النفاذة التي تشمّها كلما خرج من تحت الدوش، كما كانت لمسته المكهربة لذراعها ترسل الحرارة في جسدها.

لم تجرؤ هالي على التفكير فيه أكثر وإلا ستجن. عليها أن تخرج من السيارة. من المستحيل أن تركز أفكارها على أي شيء وهو بجانبها. ونزلت من السيارة وأخذت تتمشى على ضفة النهر.

كان عام قد مرّ على موت راؤول عندما أخذت تنتبه إلى أنها لا تستطيع أن تتذكر ملامحه بوضوح. وعندما قرنت ذلك بحسرتها على فقدانها له، سبّب لها هذا حزناً هائلاً جعلها تفضي بما في نفسها إلى زميلتها في الغرفة، غابي. وكانت هي أيضاً قد فقدت زوجها في حادث اصطدام.

أخبرت غابي هالي بأن مرحلة الإحساس بالرفض والغضب والألم والشعور بالذنب التي عانتها طبيعية، فقد كانت هي نفسها مرّت بتلك المراحل وشفيت. وبما أنها صديقتها الحميمة، فقد أكدت لها أن هذه المرحلة ستمرّ. ومع مرور الزمن، والعمل الدؤوب ستجد سلام النفس مرة أخرى.

واستحالت هذه الكلمات إلى نبوءة. فقد وجدت هالي هدوء النفس وصفاءها. أصبحت حياتها ذات هدف مرة أخرى وذلك من خلال خدمة الآخرين. لكن ذلك الصفاء أصبح مهدداً منذ عرفت فنسنت رولاند.

سمعت وقع خطوات خلفها، وصوت يهتف بها: «هالي!».

فقالت وقد تملكها الخوف من الانفراد به أكثر من ذلك: «هل لك أن تأخذني الآن إلى الكنيسة؟».

بعد صمت متوتر، أجاب: «طبعاً».

أثناء رحلة العودة إلى المدينة رفضت أن تنظر إليه، وتملكها الارتياح عندما لم يحاول هو أن يكلمها.

بعد أن أوقف السيارة، كانت مشاعرها في حالة من التشوّش منعتها من تقدير جمال هذا المبنى القائم منذ مئات السنين. ودون انتظار لما سيفعله، دخلت الكنيسة في نفس الوقت الذي برزت فيه امرأة تلف رأسها بوشاح، فتقدمت هالي إليها: «عفواً. هل لك أن تخبريني أين يمكنني أن أجد الكاهن؟».

فأجابت المرأة: «حول الممشى. مكتبه على اليمين».

شكرتها هالي، ثم وجدت المكتب دون مشكلة. طرقت الباب وانتظرت. بعد دقائق خرج شاب وشابة ثم أشار الكاهن إلى هالي بالدخول. وكان يبدو قريباً من عمر الجد موريس.

بعد أن قدمت إليه نفسها، شرحت له أنها راهبة غير مكرسة من باريس وتعمل في المنطقة. ورحّب الأب أوليفييه بها من كل قلبه. وعندما أخبرته بأنها مقيمة في مزرعة رولاند، ابتسم مسروراً. وبدا أنه يكنّ للأسرة احتراماً بالغاً، وخصوصاً للجد الذي كان صديقاً قديماً له.

- أبتي، أريد أن أكون في الخدمة أثناء وجودي هنا. لاحظت أن في الردهة برنامجاً لهذا الصيف يتعلق بحديثي السن في هذه المنطقة. أتظن أن بعضهم قد يكون بحاجة إلى مساعدة في تعلم الإنكليزية؟

- سيكون هذا رائعاً، فالسياحة هامة هنا. ومراهقونا دوماً بحاجة إلى مساعدة للحصول على أعمال أفضل. لماذا لا تنضمين إلى مجموعة الشابات عند السابعة من يوم الخميس؟ سأقدمك إليهم ثم نبدأ العمل.

- شكراً لك.

رافقها إلى باب مكتبه وهو يقول: «أخبري موريس أنني سأزوره خلال العطلة الأسبوعية».

- بكل سرور.

دخلت إلى الكنيسة لتصلّي. وعندما نهضت لتغادر، اكتشفت أن فنسنت جالس في الصف الأخير ينتظرها.

كانت راضية بحالها حتى رأته. سواء كانت مستيقظة، أو نائمة، أو تصلي فهو دوماً موجود في خلفية حياتها، وأثار ذلك مشاعرها من جديد.

وعندما أصبحا في السيارة، وجدت نفسها مرغمة على أن تنهي الحديث الذي بدأه عند النهر.

- في المستشفى أخبرت بول بأنني كنت متزوجة من قبل. أخبرته بذلك آملة أن لا يعتبرني قديسة فقد خفت أن يكون ذلك جزءاً من سبب انجذابه إلي.

صدر عن فنسنت صوت غريب: «والآن أصبح يراك أسهل منالاً».

نظرت من النافذة دون أن ترى شيئاً: «لولا أن الوضع مزعزع، لغادرت سانت جينز اليوم. لقد تهربت منه مرتين أمس، ولن يعجبه أن أخرج هذا الصبا...».

وسكتت هالي في منتصف الجملة وهي ترى بول يتقدم نحوهما مستقلاً دراجته النارية ذات المقعدين.

- سأتولّى هذا الأمر.

توقف فنسنت عند جانب الطريق، ثم نزل من السيارة عندما استدار بول بدراجته ووقف خلفهما.

لم تستطع هالي أن تجلس دون أن تفعل شيئاً. لقد استطاع فنسنت أمس أن يحرز بعض التقدم في علاقتهما الشخصية، فإذا شعر بول بأنها، ووالده، يخفيان شيئاً ما عنه، فسيلوم فنسنت. وهي لا تستطيع أن تدع ذلك يحدث.

قالت بعد أن نزلت من السيارة: «صباح الخير».

لم يكن التعبير الصارم البادي على ملامح بول يبشر بالخير هذا الصباح:

«ظننتك ستتأخرين في النوم».

- هذه الرفاهية لصغيرات السن وحسب. عندما تكبر عدة سنوات ستجد نفسك تصحو باكراً دون سبب.

قالت هذا متعمدة، وقال فنسنت موافقاً: «هذا صحيح استمتع بها كلما سمحت لك الظروف».

- كان بإمكاني أن أنهض باكراً.

- كما أذكر، لا أنت ولا مونيك ترغبان بحضور الصلاة في الكنيسة في السابعة صباحاً.

انبسطت أساريره الخشنة قليلاً: «إلى أين أنتما ذاهبان الآن؟».

فأجاب فنسنت عنها: «إلى القصر. رأيت هالي على الجسر فعرضت عليها أن أوصلها».

لقد قال بالضبط ما كانت تريد أن تقوله. وقال بول لها: «سآخذك».

- هل نسيت القواعد المطلوب مني اتباعها؟ لا سباحة، لا رقص، لا موسيقى خليعة، لا ركوب على مقعدٍ خلفي على حصان أو دراجة؟

فقطب بول جبينه: «كان ذلك عندما كنت في باريس».

فهزت رأسها: «هذا يسري في أي مكان أذهب إليه طالما أنا ملتحقة بالبرنامج الخاص بالراهبات غير المكرسات».

كان واضحاً أنه لم يشأ أن تذكّره بذلك، لكنه لم يستطع أن يجادلها في هذه النقطة.

- أريد أن أريك المنطقة.

فتدخل فنسنت قائلاً: «أنا أنهيت عملي لهذا اليوم. لماذا لا تأخذ ضيفتنا في سيارتي بينما أعود أنا إلى القصر على دراجتك؟».

وناول المفاتيح لبول.

الحل الذي أتى به فنسنت لهذه المشكلة ذكّرها بأنه لو لم يشتر لها بول ذلك الخاتم، لكان لديهما، هو ومونيك، سيارة هي ملكهما الآن.

تمتم بول: «شكراً».

ما كان الأب ليستطيع أن يقول أو يفعل شيئاً أفضل من هذا ليبعث السرور في نفس ابنه.

ولم تستطع هالي أن تمنع نفسها من الابتسام وهي ترى فنسنت على الدراجة: «منذ متى وأنت تركب هذه الأشياء؟».

فنظر إلى بول يسأله: «متى جربنا هذه الدراجة في المتجر؟».

- منذ عامين.

- أليس هناك قانون يرغمك على وضع خوذة على رأسك أثناء قيادة الدراجة؟

فقال بول غير مصدق: «في هذه الأنحاء؟ هذه دراجة منخفضة وليست موتوسيكلاً».

فرفعت حاجبيها: «ومع هذا، أكثر الاصطدامات تحدث في نطاق ثلاثة أميال من البيت».

أبدى بول احتجاجاً: «تبدين سيئة كأم جول».

تبادلت مع فنسنت نظرة تسلية لجزء من اللحظة، قبل أن يقول: «أعد بأن أكون حذراً».

أشعل المحرك ثم انطلق بهدوء. كان فنسنت يتميز عن غيره من الرجال برشاقة رياضية طبيعية بالنسبة إلى رجل طويل كبير الحجم مثله. ومن يراه لا يصدق أنه لا يركب الدراجة هذه إلا نادراً.

ظللت هالي عينيها من نور الشمس كي تراه مبتعداً. وعندما توارى حول المنعطف اشتد شعورها بالوحشة، فأسرعت عائدة إلى السيارة آملة أن لا يلاحظ بول قط انجذابها إلى أبيه.

سألها وهو جاهز للانطلاق بالسيارة: «ماذا تحبين أن تفعلي في يومك الأول هنا؟».

أخذت تمشط شعرها بأصابعها لتخفي ارتجافها: «هل بإمكاننا أن نذهب إلى سانت إميليون لنرى الكاتدرائية وسراديب دفن الموتى؟ كانت مونيك ذكرت شيئاً عن الراهب الذي عاش في كهف في القرن الثامن. أظنها

تحدثت أيضاً عن كنيسة توحيدية منحوتة في الصخر».

فحملق فيها عابساً: «لكنك كنت في الكنيسة هذا الصباح».

- لا يمكنني أن أشبع من رؤية الكنيسة أبداً.

- أنت في بلد العنب، يا هالي، وأنا أحب أن آخذك إلى بعض الكروم حيث يمكنك أن تتذوقي مختلف أنواعها.

- أنا أعرف أنك تحب ذلك. لن استمتع إلا بزيارة الأماكن الدينية، وإلا ستذهب التجربة سدى عليّ.

فسألها بنكد: «وهل هذه أحدى قواعد المنظمة أيضاً؟».

- لا، بل هو خيار شخصيّ.

- لا أستطيع أن أتصورك في ثوب راهبة.

- لا أريد أن نناقش ذلك، صدقني. وعلى كل حال، لا أنكر أنني أعجبت بمنظر عرائش الدوالي التي رأيناها ونحن قادمون من «بوردو» أمس. أتصور أن عملك في مكتب أبيك سيعلمني الكثير. وفي الواقع، ذكرني ذلك بأن علينا أن نزور المدير حالما نعود من سانت إميليون. الأم ماري كلير تنتظر «فاكس» منه للتصديق على وظيفتي. وكلما أسرعت في طلب تمديد فيزا العمل لي كان ذلك أفضل.

فتنهد بإحباط: «فلنذهب لرؤية المدير الآن وننتهي من هذا الأمر. وسأريك الكوخ أيضاً».

انتظر أن تمرّ عدة سيارات، ثم اندفع إلى الطريق، وهو يتابع: «وبعد ذلك بإمكاننا أن نبقى المدة التي نريدها في سانت إميليون. هناك مطعم على التلة يمكننا أن نتعشى فيه. ستعشقين المنظر من هناك».

- هذا يبدو رائعاً. لكنني أظن أن بإمكاننا القيام بذلك في يوم آخر.

- لماذا؟

- الليلة يريد الجد موريس أن يختبر مهارتي في لعب الشطرنج، وأنا أكره أن أخيب أمله. ماذا هن عملك الصيفي؟ متى ستبدأ به؟

فاحمر وجهه: «لا أدري. لقد جئت إلى البيت لتوّي... امنحيني بعض

الوقت...».

وضرب عجلة القيادة بقبضته بلطف: «آسف يا هالي. لا أريد أن أبدو فظاً».

- آسفة إذا جعلتك تشعر بحاجة للدفاع عن نفسك.

انتظرت منه أن يطمئنها إلى أنها لم تفعل شيئاً خطأ. وعندما لم تصدر عنه كلمة، ابتدأت تؤمن بأن خطة الدكتور موروا تعمل بشكل جيد.

إنها المرة الأولى التي يكون بول واثقاً من نفسه، رغم أنه ما كان ليعترف بذلك أبداً. لقد ابتدأت تصرفاتها تضايقه.

إذا استمرت في الانشغال ببرنامجها الخاص، سيخفف ذلك من تأثيرها عليه فيتركها في النهاية. وعندما تأتي تلك اللحظة، لن يستطيع أن يلوم أباه لأجلها والحمد لله.

شجعها هذا قليلاً، وتطلعت إلى الاستقرار في عملها الجديد. فحسب رأي غابي، العمل هو الدواء الأعظم. ولا تستطيع هالي إلا أن توافقها على قولها هذا.

بينما كانت تحاول طرد صورة فنسنت من ذهنها، أخذها بول إلى مكتب المصنع في أحد المباني الخارجية خلف القصر. أما الأبنية الأخرى فتشمل الأكواخ.

كان مظهر الأكواخ الخارجي يشبه طراز القصر، ولكن ليس الداخل، فقد اكتشفت أن المكتب كان عصرياً مزوداً بأجهزة الكمبيوتر التي كان الموظفون يعملون عليها. وأخذها بول إلى حيث المدير ليقدمها إليه.

كان إيڤز بروورارد رجلاً فرنسياً ذا جسم نحيف لكنه قوي، ويتمتع بطاقة كبرى. كان يبلغ من العمر حوالى الأربعين عاماً، وأخبرها بول بأنه متزوج وله ولدان.

بعد أن عانق المدير بول مرحباً بعودته إلى الديار، طلب إليه أن يتركه على انفراد مع هالي. ورغم أنه قال هذا له باسماً أدركت هالي أن بول لم يعجبه أن يُصرف بهذا الشكل، فلوى شفتيه ثم قال لها إنه سيعود ليأخذها بعد ساعة.

وابتسمت عينا المدير إعجاباً بها: «أخبرني بول بأنك تريدين عملاً للإقامة فترة في فرنسا».

- هذا صحيح. هل أخبرك عن السبب؟

- لا. ولكن بعد أن عرفتك يمكنني أن أفهم سبب استعجاله لإبقائك هنا.

وتأوهت في داخلها... آه بول! ودون أن تضيّع وقتاً أخبرت الرجل بأنها راهبة غير مكرّسة كانت تعمل مسجلة مبيعات في متجر «ناتي» في باريس. وتغيّرت ملامح المدير بعد سماعه ذلك.

- أصبحنا، أنا والتوأمان، أصدقاء حميمين. لا أدري إلى متى أنا باقية هنا أقوم بالخدمة في المنطقة، ولكن عليّ أن أجد عملاً حيث أنني هنا بفيزا عمل.

فتمتم يقول: «المعذرة لفكرتي الخاطئة عنك».

- كيف لك أن تعلم ما دام بول لم يشرح لك أمري؟ وكونه ابن السيد رولاند يضعك في موقف صعب، ولهذا أرجوك أن تكون صادقاً. إذا لم يكن بإمكانك توفير مساعدة مؤقتة لي، سأعتمد على عون آخر.

أخرج من جيبه علبة دخان وسألها متردداً عما إذا كان يضايقها أن يدخن، فأجابت بالنفي. وبعد لحظة صمت سألها: «أي عمل تحسنينه غير البيع في المتجر؟».

- لدي شهادة ثانوية لتعليم اللغة الاسبانية وكذلك الفرنسية المبسّطة.

- هل قلت الاسبانية؟

- نعم. بعد تخرجي أصبحت مضيفة في شركة الطيران التشيلية، وبقيت أعمل هناك حتى وفاة زوجي.

فقطب جبينه: «آسف لفقدانك زوجك».

- وأنا كذلك. وبعد مرور الزمن، تغير اتجاه حياتي وأصبحت راهبة غير مكرّسة. ولكي أكسب معيشتي، عملت نادلة في مطعم اسباني في سان دييغو حتى جئت إلى فرنسا.

- لابد أنك تتحدثين الاسبانية بطلاقة.

- نعم كان زوجي من تشيلي. وهذا ساعدني.

- ماذا عن مهارتك في الكمبيوتر؟

فأخبرته: «إنني استعمل واحداً منذ دراستي الثانوية».

- ما هي المدة التي ستمضينها في هذه البلاد؟

- لست واثقة من ذلك بعد.

التفت الاثنان ليريا جسم فنسنت المتين البنية في الباب. ولم يكن لديها فكرة عن وجوده في هذه الأنحاء. منذ متى هو واقف هنا؟ وأخذ قلبها يخفق عالياً حتى شعرت بالغثيان.

وقف المدير: «أظننا وجدنا الشخص المناسب لمساعدة ميشيل مع المحاسبين الجدد القادمين من جنوب أميركا».

- تابع حديثك.

أثناء تلاوة المدير عليه كل ما قالته، كانت عينا فنسنت تشملان هالي بنظرات حارقة لم تشعر بمثلها من قبل. وكان المدير يتابع: «كان ميشيل يوزع جهده بين عمله العادي والترجمة لهم. ومع معرفة هالي بالأسبانية، يمكنها أن تستلم عنه هذا العبء حالما تنهي تدريبها».

فأومأ فنسنت: «هل ميشيل هنا؟».

- إنه يوم عطلته. يسعدني أن أحصل عليها هنا...

- أنا مقدّر لذلك، يا إيفز، لكنك ما زلت تتعامل مع المحاسبين الجدد الذين أحضرتهم معي من إنكلترا. عندما ترسل «فاكس» إلى «الأم المقدسة» في باريس وتخبرها بأن الآنسة لين على جدول الرواتب، سآخذها إلى مكتبي وأريها ما يتطلبه العمل.

تملكتها رجفة. أن تكون معه بمفردها هو بالضبط ما تتمنى أن تتجنبه.

نظر في عينيها مرة أخرى: «إذا كان ذلك لا يعجبك لدي فكرة أخرى».

ماذا يمكنها أن تقول أمام الموظف؟ فقالت: «أنا شاكرة جداً لأي عمل».

فتحت حقيبة يدها بأصابع مرتجفة وبحثت عن رقم الفاكس في مفكرتها. وبعد أن أعطت المدير الرقم، شكرته ثم تبعت فنسنت.

حرصت هذه المرة على أن لا تسير بقربه تماماً بحيث يتأبط ذراعها. فهي لا تستطيع مواجهة ذلك حالياً وإلا سيفضحها ارتجافها.

كان مكتبه في الطابق الأرضي من القصر. وكان المدخل قبالة مكتب المصنع مباشرة. وكان هذا الترتيب منطقياً تماماً.

حسب قول التوأمين، كان يأتي إليه تجار من كل أنحاء العالم للتعاقد معه. لديه مستخدمون يأخذون الزبائن والسياح في جولات على مكاتب المصنع.

كان فنسنت يدير امبراطورية فريدة مربحة يعود تاريخها إلى ما يقارب أربعمئة عام. كان بديهياً أن لديه فطنة عملية غير عادية. ومع ذلك، بالنسبة إلى هالي، نجاحه الأكبر هو ولداه وتربيته المثالية لهما.

فتح لها الباب: «تفضلي بالدخول».

كان مكتبه يمثل مزيجاً من اتساع غرف الإستقبال في القرن السابع عشر ومن ضروريات التقنية العصرية.

علقت على أحد الجدران لوحة بالغة الإتساع تمثل مشهد المزرعة والقصر من الجوّ، وعلى الجدار المقابل كانت خريطة تمثل تاريخ كروم رولاند. وكان مسجلاً عليها الحجم بالهكتار، الثمر، نوع العنب، زمن النضج، الجوائز الحائز عليها بصفته الأفضل في سنة معيّنة.

كان هذا حرم فنسنت المقدّس. لقد جعلها تتمنى قضاء ساعات هنا لتعرف المزيد عنه. لم تعد تستطيع الكذب على نفسها. لم يكن هنا من تستمتع بقربه أكثر منه.

ماذا عليها أن تفعل؟

وقف خلفها فشعرت بحرارة جسده، وشمّت رائحة الصابون الذي استعمله هذا الصباح. ولم تجرؤ على الالتفات إليه.

- أعلم أنه صعب جداً في البداية.

وهو، فعلاً، صعب جداً. ولوّثت مشاعرها إلى حد الهياج. لم

يلمسها، ومع ذلك كاد يحرقها الشوق إليه.

- بابا؟ كنت أرجو أن... آه، هالي، قال أبي إنك خرجت مع بول في نزهة.

أجفلت هالي لسماعها صوت مونيك القادم من عند عتبة باب آخر وازداد لديها الشعور بالذنب. والتفتت ببطء إليها محاولة أن تتظاهر بالهدوء: «شعرت بأن عليّ أن أبحث عن عمل قبل القيام بأي شيء آخر».

- لا بد أن هذا أغضب بول.

نطقت مونيك هذا ببطء ساخر متبعة آخر طراز أميركي في الحديث. لا أحد يعرف أخاها كما تعرفه هي. وابتسمت لأبيها.

- ألم تمنح هالي وظيفة بعد؟ بإمكانها أن تعمل أي شيء.

- هذا ما أجده. إذا جئت لتعانقيني فأنا بالانتظار.

- أنا أعلم أنك اشتقت إليّ.

قالت هذا قبل أن تجد نفسها بين ذراعي أبيها. وحسدتها هالي بينما كانت هذه تتابع: «لكنني اشتقت إليك أكثر مما تتصور يا بابا. أنا سعيدة جداً بالعودة إلى بيتنا».

- أعرف هذا، يا صغيرتي.

فألقت برأسها إلى الخلف: «هل تمنحني إذناً بأن أطلب إلى ڤيڤيان أن تدربني على وظيفتها؟ كنت قد أخبرتني أننا سنتحدث في هذا الأمر بعد عودتي من باريس. إن سوزيت تتوسل إليّ أن أجد عملاً صيفياً لي معها في سانت جيتز، لكنني أريد أن أعمل هنا في المزرعة».

نظر فنسنت إلى هالي: «ما رأيك؟».

لم تكن هالي تريده أن يسألها. في كل مرة يتحدثان فيها معاً، كانت تزداد انجذاباً إليه حتى لم تعد تعلم من تكون هي أو ماذا تفعل.

- عندما يتعلق الأمر بمونيك فأنا منحازة. منذ اللحظة التي عرفتها فيها أدركت أنها مميزة، ولم يدهشني أن تكون الأولى عند تخرجها من المدرسة.

نظر فنسنت إلى ابنته بحب: «أنا بالغ الزهو بك».

وقالت هالي: «أنت محظوظ لحماسة ابنتك للعمل. كثير من الأحداث الذين عرفتهم أثناء عملي هم من المطرودين من المدارس، والمدمنين على المخدرات، غير القادرين على العمل إلا إذا أعيد تأهيلهم».

تعلقت عيناه بعينيها لحظة قبل أن يعود إلى مونيك فيقبل جبينها ثم يتركها: «إذن، فأنت تريدين المساعدة مع السياح؟».

فصرخت بحماسة: «نعم».

- لا بأس. يمكنك أن تذهبي إليها وتخبريها بأنني أعطيتك إذناً بأن تبدأي التدريب.

عندما تبتسم مونيك بذلك الشكل، تبدو رائعة الجمال حقاً. هل ذكرى زوجته ما زالت تملأ ركناً خفياً في قلبه؟

كان هذا سؤالاً يشغل فكر هالي ويزعجها، أتراها... تغار منها؟

- شكراً يا بابا... شكراً يا هالي. آه، قبل أن أنسى.. اليوم هو عيد ميلاد إتفيج، وأنا سأقيم حفلة صغيرة لأجلها. لن نفعل شيئاً إلا بعد أن تقدم لنا العشاء. وعندما تعود إلى المطبخ لتحضر الحلوى، سنطفىء الأنوار ونضع قالباً من حلوى المرصبان في انتظارها. هل يمكنني أن أستعير السيارة لكي أحضره من المدينة؟

- طبعاً، رتّبي الأمر مع بول. إنه في مكان ما هنا والمفاتيح معه.

- سأبحث عنه. لقد سبق وأخبرت غاستون والآخرين، وسينضمّون إلينا. كل شخص سيحضر هدية وأنا سأعطيها ذلك الثوب الذي أحضرته لها من باريس.

الثوب الأحمر الشهير!

كانت هالي تتصور أن فنسنت لا يمكن أن ينسى تلك الأمسية المؤلمة إلا بعد وقت طويل. لكنها عندما اختلست النظر إليه، رأته يشعث شعر ابنته مداعباً: «ستعشق إتفيج ذلك الثوب صغيرتي. كنت سأمنحها علاوة على راتبها لكنني الآن سأضع لها المبلغ مع بطاقة تهنئة وأسلمها إياه الليلة، هل تشترين لي بطاقة؟».

- طبعاً، يا بابا إلى اللقاء.

فصاح خلفها: «أغلقي الباب خلفك».

عندما أصبحا وحدهما مرة أخرى، التفت إليها. ظنته سيبدأ بشرح عملها الجديد، لكنها، بدلاً من ذلك، شعرت به يتغيّر.

- كم دام زواجك من راؤول؟

أذهلتها رغبته في الحديث عن راؤول: «أنا... إذا كنت ترى لغتي الإسبانية ليست جيدة بما يكفي، لا بأس، سأبحث عن عمل آخر».

- ليس هذا سبب سؤالي هذا.

نظرت إليه مجفلة: «لا أفهم».

- ليس لدى بول فكرة عن نوع الألم الذي ما زلت تعانينه.

مرت الثواني قبل أن تفهم أنه يظنها ما زالت حزينة على زوجها: «أفضّل أن لا أتحدث عن حياتي الخاصة».

- ما كنت لأذكر الماضي لو أنني لم أشعر بالقلق حيال ما تكبدته من عناء لتحضري إلى هنا لمساعدة بول.

وأفصحت لهجته المنخفضة عن قلق بالغ. فهمست: «ذلك ليس عبثاً. فقد رحل راؤول إلى عالم أفضل. ويمكننا أن نشكر الله لأن بول ما زال حياً. وأنا على استعداد للقيام بكل ما أستطيعه لكي أجعله يجتاز هذه الأزمة لكي يتمكن من العيش حياة طويلة سعيدة».

حتى ولو قتلني البقاء بقربك... أخذت تفكر في نفسها.

- هالي، إذا كنت لم أقل شيئاً حتى الآن فأنا أريدك أن تعلمي مقدار شكري لك لرعايتك ولديّ في باريس. عندما أرى طريقة لجوئهما إليك، وكيف يتلهفان إلى تقديرك لهما ويزهوان عند مديحك لهما. أدرك أنك ملأت مكاناً شاغراً في حياتهما.

فهزت رأسها: «أنت لست بحاجة إلى أن تشكرني. من السهل جداً أن يحب الشخص ولديك. وأظنك، وولديك، أكثر الناس حظاً في العالم لكونكم أسرة مترابطة».

كان واقفاً قريباً منها أكثر مما ينبغي حتى كاد يلمسها.

- وماذا بالنسبة إلى أسرتك يا هالي؟ لم أسمعك تتحدثين عنها قط.

أغمضت عينيها لكنها لم تستطع أن تمنع الدموع من تندية أهدابها: «لقد... رحلوا جميعاً».

ساد السكون الغرفة: «ماذا تعنين بقولك (رحلوا)؟».

لم تستطع هالي أن تتحدث عن ذلك، فالتفتت حولها متصنعة الاهتمام باللوحة المطرزة بينما كانت تحاول تمالك نفسها.

شعرت بيديه تضغطان على كتفيها بلطف من الخلف. كانت لمساته أشبه بعسل دافىء يسيل على جلدها: «أخبريني، أريد أن أسمع».

لو أنه لم يفعل ذلك لكانت على ما يرام. لكنها عندما شعرت بيديه، تفجرت فيها عواطف طال كبتها. وصدرت عنها آهة.

- هالي... أفضي بما في نفسك.

وإذ لم تستطع مقاومة توسله هذا، قالت: «كلهم ماتوا في حادث سقوط الطائرة».

- من هم؟

- جداي وأبواي، ووالدا زوجي وأخته وزوجها، وأخي وزوجته وطفلهما وزوجي راؤول.

- يا إلهي.

لف ذراعيه حولها وجذبها إلى صدره. كانت تحمل آلامها بصمت طوال الوقت. ومشاركة أحدهم بها كانت أمراً مستحباً بالنسبة لها.

- عندما سقطت بنا الطائرة كنا، أنا وراؤول، قد تزوجنا في اليوم السابق. وكان والداي قد أقاما لنا حفلة كبرى في «بيلير» وكنا متجهين إلى سانتياغو لحضور حفلة أخرى بمناسبة زواجنا عندما سقطت الطائرة. وكان فيها ٢٥٠ شخصاً لم ينج منهم سوى ست أشخاص. وبسبب التضاريس الطبيعية التي شكّلت صعوبة في الوصول إلينا، لم يجدونا إلا بعد أسبوع. كنت واثقة من أنني كنت ميتة وذهبت إلى مكان غريب. لم أستطع

أن أرى شيئاً، وكل ما كنت أسمعه هو صوت امرأة كانت تمسك بيدي وتخبرني بأن لا أيأس. لقد أبقت عينيّ مغطاتين، وسمعتها تعدني بأن العون في طريقه إلينا. كانت تغني لي أحياناً، وأحياناً تصلّي وتساعدني على الصلاة. لقد منحتني الصبر والقوة حين لم يكن ثمة أمل بالنجاة.

وذات يوم سمعت أصواتاً تتحدث عن سقوط طائرة. وأخبرني شخص ما بأنني نجوت. وفي المرة التالية التي استيقظت فيها كان ذلك في المستشفى. وكانت عيناي مربوطتين ولم أستطع أن أحرك أياً من ساقي. أخبرني الطبيب بأنني مصابة بعمى الثلج المؤقت ويكسر في ساقي، لكنني سأشفى. أتذكر أنني لم أكن أهتم بنفسي، ولكن أين المرأة التي كانت ترعاني؟ والتي منعتني من الانزلاق إلى المجهول؟ أين هي الآن ومن يرعاها؟

قال لي إنه سيسأل عن اسمها. وكان هناك امرأة ناجية لم تمض أكثر من أيام معدودات في المستشفى، حتى شعرت بيد مألوفة فوق يدي، وكان صوتها هو الذي حدثني: «سمعت أنك تسألين عني يا «سنيورا». أنا الأخت كارلوتا».

وبينما هالي تستعيد مأساتها، شعرت بأن هناك شيء آخر يحدث. كان فستنت يقبّل شعرها وصدغها.

ربما ظن نفسه يواسيها، لكنه أيقظ بهذا مشاعر لم تستطع أن تتجاهلها. وكمن يخرج من حلم، انتبهت فجأة إلى حرارة جسديهما.

وإذ تملكها الذعر مما أيقظ فيها من حنين، انزلقت من بين ذراعيه وجلست على أقرب كرسي، ثم قالت دون أن تنظر إليه: «آسفة لفقدي انضباطي بهذا الشكل».

فقال وهو يتنفس فجأة بصوت مسموع: «يا لله، يا هالي. حتى مجرد تأديتك أي عمل هو معجزة حقاً».

- هنالك هدف لكل شيء، وهذا ما آمنت ورضيت به.

وبللت شفتيها الجافتين: «لقد ذكر إيفز فتح حسابات جديدة في أميركا الجنوبية، هل هذا يعني أنكم توسعون عملكم في عدة بلدان؟»

وقبل أن يجيب إذا بالتوأمين يدخلان من الباب الخارجي. وارتجفت هالي. ماذا لو كانا دخلا قبل دقيقتين؟

وبادر بول أباه قبل إلقاء التحية: «ما هذه المعاملة يا بابا؟ تقول مونيك إنك سمحت لها بأن تأخذ السيارة لكننا، أنا وهالي، كنا عازمين على الذهاب بها إلى سانت إميليون؟».

ذكّرت فظاظته هذه هالي بالمراهقين الذين عملت معهم في كاليفورنيا وباريس.

كان فنسنت الآن جالساً خلف مكتبه: «ألا يمكنكما، أنتم الثلاثة، أن تذهبوا معاً؟ إنكما بذلك، تساعدان مونيك على الاحتفال بعيد مولد إتفيج هذا المساء؟».

فنظر بول إلى أخته بدهشة: «هل أنت واثقة من أنه اليوم؟»

- تماماً!

- أثناء وجودكم هنا تناولوا الغداء على حسابي في مطعم «العبيد الثلاثة». وستستمتع هالي أكثر من الآخرين «بالكيك» الطازج المصنوع بطريقة ما زالت هي نفسها منذ ثلاثمئة سنة.

وسحب من جيبه مبلغاً من المال ناوله لمونيك التي دارت حول المكتب لتقبّله: «شكراً يا بابا!».

كانت هالي أول من خرج. مهما كان تبريرها لما حدث فقد جعل ارتماؤها بين ذراعي فنسنت علاقتهما أكثر حميمية. كيف لم يشعر التوأمان بذلك؟

ألغى دخول فنسنت إلى حياتها الحدود الفاصلة بين الروح والجسد والمشاعر في وجودها.

وإذا لم تتغير الأمور في أقرب وقت، ستكون هي من يذهب لاستشارة الدكتور النفساني.

٧ - إني أغرق

- أنا أيضاً لدي هدية لك، يا إتفيج.

- أوه؟

وبدت صدمة على مديرة المنزل.

كان فنسنت هو أيضاً يظن أن إعطاء الهدايا قد انتهى لكنه كان مخطئاً على ما يبدو.

ناولت هالي إتفيج لفافة صغيرة من جيب تنورتها البنية اللون. وكانت هذه هي نفس التنورة التي كانت ترتديها عندما دخل إلى شقته ورأى الخاتم يتألق في إصبعها.

بدت تلك اللحظة وكأنها تنتمي إلى زمن مختلف في بلد بعيد.

فتحت إتفيج اللفافة لتجد قطعة معدنيّة مطلية بالأحمر والأسود، مصنوعة بشكل قلب مكتوب في وسطها (أحبب الله المنعم).

التفتت إتفيج إلى هالي: «يا لها من هدية جميلة!».

- لطالما كان التوأمان يتحدثان عنك وعن غاستون بعطف بالغ، ففكرت في أن عليك أن تعلمي نوع التأثير الذي أحدثته فيهما على مرّ السنوات.

فتمتمت مونيك: «هذا صحيح».

لم يقل بول شيئاً، لكنه ابتسم لهما. وكانت هذه أول ابتسامة له منذ عاد إلى البيت.

أفرغ فنسنت كوب العصير في جوفه، ليمنع نفسه من أن يندفع إلى هالي ويأخذها بين ذراعيه كما فعل صباح هذا اليوم.

وتملكه الشك في أن أية إيماءة منه قد تعني شيئاً لهذين الزوجين اللذين لم ينجبا أولاداً واللذين أمضيا معه ومع الجد أكثر من عشر سنوات.

نهضت إتفيج من خلف المائدة وقالت وهي تغالب دموعها: «شكراً للجميع. هيا بنا، يا غاستون».

جمع غاستون بقية الهدايا، وقبل أن يغادر المائدة ربّت على يد هالي. اعتبرت مينو وزوجها ذلك إشارة لهما، هي وزوجها، فاستأذنا وانصرفا.

وفي النهاية لم يبق سوى الأسرة حول المائدة. كانت هالي منسجمة معهم تماماً. وكره فنسنت فكرة رحيلها يوماً ما لتدخل الدير.

إنه بحاجة إلى سماع المزيد من اعترافاتها عن ماضيها، إذ من الواضح أن هناك أكثر مما كان يظن. وهذا ما يعذبه الآن. انسحبت هاربة من مكتبه قبل أن تنتهي من إخباره بقصتها، وتركته يتخبط في جهنم أفكاره وأحاسيسه الجديدة.

ولكنه اضطر إلى الإعتراف بأنه مهما كان السبب الذي جعلها تسلخ نفسها من بين ذراعيه فجأة بهذا الشكل، فهو يبقى من وحي العناية الإلهية. إذ لم يكن ليجد أي عذر يقنع بول لو فاجأه يضم هالي بين ذراعيه.

ومن ناحية أخرى، لن يستطيع أن يذهب إلى فراشه الليلة قبل أن يسمع بقية قصتها. ولكن كيف يمكنه أن ينفرد بها دون لفت انتباه الولدين إليهما؟

كان الجد موريس قد أعدّ طاولة الشطرنج أثناء إخلاء هالي ومونيك للمائدة من بقايا الاحتفال بعيد مولد إتفيج.

أدرك فنسنت من الطريقة التي كان بول يدق بها بأصابعه على حافة المائدة، أنه يفكر في أن يهرب ويأخذ هالي معه. لكنه بدلاً من ذلك، اختار أن يمضي الأمسية في مراقبتها تستمتع بلعب الشطرنج مع موريس.

وتألم لأجل ابنه الذي دفعه افتتانه بهالي في طريق مشاعر خداعة لا رجاء فيها. ربما...

- بول؟ كيف يسير العمل في كوخ هالي؟

- لقد أصلح برنارد المجاري والأدوات الصحية. بقي عليه أن يستبدل

القفل، سيصل غداً طاقم التنظيف وبعد ذلك يصبح الكوخ جاهزاً لوضع الأثاث.

- ولماذا الانتظار حتى الغد؟

فنظر بول إلى أبيه بحيرة: «ماذا تعني؟».

- إذا استخدمنا، أنا وأنت، عضلاتنا، يمكننا أن نقوم بعمل أفضل بكثير. ما رأيك في ذلك؟ بإمكان مونيك أن تساعدنا... من يعلم؟ وعندما ينهي الجد موريس وهالي اللعب، يمكن أن تستقر هالي هذه الليلة في بيتها.

لمعت عينا ابنه: «فلنفعل هذا».

واندفع واقفاً. وكان هذا انتصاراً صغيراً آخر يقرّبه من ابنه، حتى ولو كانت هالي تمثل الحافز الوحيد وراء تجاوب بول مع أبيه.

- سأغيّر ملابسي وأقابلك في غرفة المعدّات بعد خمس دقائق.

- وسأغير أنا أيضاً ملابسي.

غادرا غرفة الطعام معاً، وفي طريقهما إلى الخارج، تبادل الجد النظرات مع فنسنت... ومنحه جده إيماءة ذكية تنم عن موافقته على هذه الهدنة التي أنجزها، مهما كانت قصيرة الأجل.

لو علم الجد أن أهداف فنسنت تتخطى سعادة بول، لما وافقه على ذلك.

المفروض أن قد اكتسب بعض الحكمة خلال الثمانية عشرة سنة الماضية. فكيف يعمل على استنباط وسائل ينفرد فيها مع الفتاة التي يحبها ابنه منذ تسعة أشهر؟

ربما كان يفقد عقله...

- هوذا كوخك أصبح جاهزاً!

بعد جلسة تعليمية أخرى مع الجد في لعبة الشطرنج، أخذت مونيك هالي إلى خلف القصر حيث أصبح الكوخ جاهزاً لتقيم فيه.

لم تكن تسمية كوخ لائقة على الشقة الساحرة المزدانة بنقوش على جدرانها يعود طرازها إلى القرن السابع عشر. كانت تحتوي على صالون وغرفة طعام

صغيرة ومطبخ وحمام وغرفة نوم مؤثثة بسريرين ومرآة أسطورية الجمال. وكان هناك تليفون.

كان ثمة قطع من الأثاث واللوحات المنتشرة في أنحاء الشقة. أوصت بها مونيك منذ فترة.

- هل أعجبك؟

- أنت تعرفين الجواب. شكراً يا مونيك. سأشعر هنا وكأنني أميرة. واحتضنتها بشدة.

- لقد ساعدت أبي وبول في تجهيز الشقة.

- كنت أتساءل إلى أين تراهما ذهبا.

- هل تريدينني أن أنام معك الليلة كيلا تشعري بالوحدة لابتعادك عن القصر؟

رغم محبة هالي للفتاة إلا أنها فضّلت أن تبيت وحدها لتتمكن من الاتصال تليفونياً بغابي؛ فهي لم تتصل بصديقتها، منذ مغادرتها سانت دييغو، سوى مرتين فقط. مرة يوم عيد مولد غابي، ومرة أخرى يوم عيد رأس السنة. وكانت قررت أن تتصل بها مرة أخرى بعد أن تعود إلى كاليفورنيا لولا هذا الوضع الذي لا تستطيع أن تسمح له بالاستمرار طويلاً.

كانت غابي تمتاز بالتعقل والحكمة، وإذا اقتضى الأمر، سيتّبعان هي وماكس صراحة قاسية معها. ومع ذلك لم تستطع هالي أن ترد عرض مونيك!

بعدما فعله بول أصبحت أخته بحاجة إلى توجيه قوي حتى لا تقع في التجربة ذاتها. ولسوء الحظ، لا يمكن أن تعتمد في ذلك على سوزيت أو أي من صديقاتها. بجانب هالي، ليس هناك سوى أبيها والجد موريس يمكنها أن تثق بهم.

- هذا يسرني جداً. فلنحضر حاجياتنا.

وخارج الكوخ صادفتا الرجلين اللذين كانا يتحدثان إلى برنارد مدير

الأملاك.

بعد إتمام التعارف، ناول المدير هالي مفتاحها: «لدي نسخة عنه في حال ضياعه».

شكرته ثم أسرعت تدخل الكوخ مع مونيك. ملابس الراهبة غير المكرّسة لا تملأ سوى حقيبة واحدة لم يستغرق ملؤها وقتاً طويلاً من هالي. وحين خرجت من القصر كانت تحمل تحت إبطها رواية طويلة من مجموعة كتب مونيك.

أحضرت مونيك ما تحتاجه لتمضية الليلة، ثم عادتا إلى الكوخ مباشرة.

سأل بول أخته وهو يراها تحمل حقيبة صغيرة فيها حاجياتها لقضاء الليل: «ماذا تفعلين؟».

كانا، هو وأبوه، ينتظرانهما في الصالون. وحاولت هالي أن تتجنب النظر إلى وجه فنسنت. لقد تفادت نظراته ما يكفي أثناء العشاء. ولكن كان من الصعب عليها أن لا تنظر إليه وهو بهذه الرجولة والجاذبية ببنطلونه الجينز القديم وقميصه الأسود المقفل.

لكن هذه ليست أفكار راهبة غير مكرسة. كيف تتخلص منها؟

- طلبت من مونيك أن تمكث معي. وبما أنكم هنا جميعاً، دعوني أشكركم لإعداده لي بهذه السرعة. الشقة جميلة جداً. فكرت في تدشينها بالتناوب على قراءة قصة «حوار الحيوانات السبعة».

- هل عددنا كاف؟

فالتفتت إلى مونيك: «ربما لا؟ ولكن طلبت مني مرة أن أقرأها وسأفعل الليلة؟».

فقال فنسنت: «ابنتي على حق. إنها قصة مضحكة للغاية كُتبت من وجهة نظر كلب وقطة».

فقالت هالي لا تريد أن تعزل بول عن الحديث: «لماذا لا تبقى وتقرأ معنا قبل أن نأوي إلى النوم، يا بول؟ إنني بحاجة إلى عون كبير في لغتي الفرنسية. ربما بقدر ما كنت أنت بحاجة إليه بالنسبة إلى إنكليزيتك الخريف الماضي».

أضافت ذلك عندما رأت إمارات الرفض على وجهه.

مطّ وجهه بشكل غريب: «سأقرأ لفترة قصيرة».

فابتسم فنسنت: «يبدو هذا مسلياً. هل تمانعين في أن أنضم إليكم؟».

لم تستطع هالي أن تصدق أن خطتها في تجنب التفكير في فنسنت لليلة واحدة قد أعطت نتيجة عكسية. فقالت: «كلما كثر العدد، كلما ازداد المرح».

وإذا بهذه السهرة تصبح من أجمل السهرات التي لا تنسى في حياة هالي.

كل شخص أدّى دوره، وعندما جاء دور هالي لتقرأ، منحته كل ما لديها من مهارة.

في البداية، تمالك الأب وولداه أنفسهم من إظهار السخرية لطريقة لفظها الأجنبية، لكنها عندما حاولت أن تتلفظ بكلمات طويلة معقدة وهي تؤدي دور الكلب خرجت الكلمات بنبرة إسبانية، فانفجر فنسنت بقهقهة عميقة ترددت أصداؤها في أنحاء الغرفة. وسرعان ما شارك التوأمان أباهما الضحك.

نظرت إليه وهو يمسح عينيه. وعندما تشابكت نظراتهما لحظة، أدركت هالي أنها وقعت في الحب للمرة الثانية في حياتها، وأنها مغرمة بهذا الرجل بكل ما لديها من عمق وحميمية.

احمرت وجنتاها، فأطبقت الكتاب وحوّلت وجهها عن فنسنت بمشقة، وهي تقول: «أظنني أستضفتكم بما يكفي».

فنهض فنسنت واقفاً: «كل الأشياء الجيدة لها نهاية. هيا بنا يا بول، وإلا باغتنا الغد دون أن ندرك. هالي؟ سيكون ميشيل ڤيريت في مكتب المصنع حوالي الثالثة. وسيدربك على العمل عندما تكونين جاهزة لذلك».

فأجابت بصوت مرتجف: «شكراً لكل شيء. تصبح على خير».

تباطأ بول عند الباب: «أنت لن تلعبي الشطرنج مع الجد موريس مساء الغد، أليس كذلك؟».

سؤاله هذا، بما يتضمنه، كان النشاز الوحيد في هذه الأمسية التي لا

تُنسى.

- لا، لكنني في الواقع، سأذهب لمقابلة الأب أوليڤييه في الكنيسة.

استطاعت أن تلمس التمرد في ردة فعل بول، أما ردة فعل فنسنت فجاءت مختلفة تماماً وكان واقفاً خلف ابنه، ولأنه أطول منه فقد استطاعت أن تراه جيداً. فقد تصلّب فكه، واختفى كل أثر لذلك الرجل السعيد الفارغ البال، الذي كانه أثناء الساعة الماضية. ما سبب تغيّره المفاجىء هذا؟

- سأوصلك بنفسي إذن.

جاء قول بول هذا حاسماً. وأدركت هالي أنه ليس بالوقت الذي يمكنها فيه أن تحبط خطته.

- هذا يسرني.

وقال الأب: «لكنني سأحتاج السيارة غداً صباحاً، مع الأسف، لأن لدي موعداً».

أترى موعد فنسنت مع امرأة؟ لم تستطع هالي أن تحتمل هذه الفكرة. كما أن مونيك لم يبد عليها ذرة من السرور، هي أيضاً.

ونظر فنسنت إلى ولديه: «أظن أنه سيكون علينا أن نذهب إلى المدينة غداً صباحاً ونشتري سيارة لكل منكما».

وكان من الصعب على هالي أن لا تضحك إزاء الدهشة البالغة التي بدت على التوأمين. وقال بول: «لكنني ظننت...».

فقاطعه أبوه: «كلنا بحاجة إلى مواصلات، يا بول. ظننت سابقاً أن بإمكانكما أن تتشاركا بسيارة واحدة، لكنني أرى الآن أن هذا لن ينجح. لقد نجحتما، أنتما الاثنين، في بلوغ القمة في الدراسة وجلبتما لأبيكما الفخر. فقط تذكرا شيئاً واحداً وهو أننا لا نشتري سيارات «الفيراري» أو «المازيراتي» في سانت جينز. عليكما أن تختارا ما هو فرنسي الطراز».

ضحكت هالي بصوت هادىء، ورآها فنسنت من بعيد فابتسم. مهما كان يزعجه منذ دقائق، فقد اختفى الآن.

كل شخص يعلم مقدار حب بول للسيارات الإيطالية. لكنه، للمرة الأولى، لم يعارض، بل بدا وكأنه فوجىء بكرم أبيه. وبالنظر إلى أنه أنفق المال المخصص لشراء سيارة على خاتم غالي الثمن، كان تصرفه هذا طبيعياً.

- شكراً يا بابا.

أن يدعو بول أباه بابا مرة أخرى، يعني أن فنسنت يتقدم بسرعة؛ أخذت هالي تفكر وهي تتمتم بصوت خافت: «جيد، جيد جداً».

واندفعت مونيك إلى أبيها تعانقه.

ابتعدت هالي عن هذا المشهد السعيد وتوارت في الحمام لتتهيأ للنوم. على مخابرة غابي التليفونية أن تنتظر إلى الغد.

بعد قليل أطفئت الأنوار وصعدت الفتاتان إلى سريريهما. سمعت هالي مونيك تناديها باسمها، فالتفتت إليها: «ماذا تريدين؟».

- إذا قررت أن تؤدي القسم، هل لك أن تقومي بذلك هنا؟ هنا دير يديره الدومينيكيون قرب «بوميرول» حيث يملك أبي كرم عنب.

جذبت هالي الغطاء إلى تحت ذقنها: «يمكنني ذلك. لكن هدفي هو أن أعلّم الأولاد في أميركا الجنوبية. هناك مناطق فقيرة للغاية ولا يمكن للحكومة أن تدفع مالاً للتعليم».

تأوهت الفتاة الفرنسية: «أميركا الجنوبية... ولماذا تذهبين إلى هناك؟ ذلك مكان بعيد».

حان الوقت لتخبر مونيك بالأمور التي أفضت بها إلى فنسنت. لكنها لسبب ما، لم تجرؤ على أن تخبرها بتاريخها الآن، فقالت: «لو أن زوجي لم يمت، لجعلنا بيتنا في تشيلي حيث ولد وعاش».

- كنت أعلم أن له اسماً إسبانياً، لكنني لم أكن أعلم أنك تزوجت تشيلياً.

- كنت تخرجت لتوّي من الكلية ورغبت في المغامرة. تعارفنا عندما كنت مضيفة في طائرة. كان يعمل في شركة بترول أميركية فكان دائم السفر بين سانتياغو ولوس أنجلس. وبقينا نخرج معاً مدة سنة، ثم أحببنا بعضنا

وتزوجنا.

وفي الدقائق التالية أخبرت مونيك بكل شيء. وبدا على الفتاة الذعر: «أسرتاكما؟ مات كل شخص؟»

- نعم، لكن الأخت كارلوتا كانت تمسك بيدي. كنا نتحدث يومياً حتى خرجت من المستشفى حيث أخذت تعتني بي. أخذتني الراهبات في سانتياغو إليهن وكن رائعات معي.

فهمست مونيك: «مثلك تماماً».

فأجابتها هامسة: «شكراً. عندما أخبرت الأخت كارلوتا بأنني أريد أن أكون واحدة منهن وأعلّم في المناطق الفقيرة التي تتحدث عنها، قالت إنني لن أكون جاهزة لذلك حتى أزيل الحزن من نفسي، وقبل ذلك عليّ أن أعود فأتصل بجذوري. وتحت إلحاحها، عدت إلى كاليفورنيا. قالت لي إنني إذا احتجت إلى عون، يمكنني أن أتصل بالأم المقدسة في الدير الدومينيكاني في سان دييغو. وهكذا ذهبت إلى لوس أنجلس لكنني لم أستطع مواجهة كل ذكرياتي. وحالاً بعت منزل أبويّ، وأرسلت ثمنه إلى دير الأخت كارلوتا هبة مني. وبعد ذلك ذهبت إلى الدير في سان دييغو مستعدة للالتحاق لكن الأم المقدسة قالت إن عليّ أن أمضي مزيداً من الوقت في التفكير في قراري هذا لأن حياتي، كراهبة، لن تكون سهلة. أصرّت بأن أكون واثقة تماماً من أن تكريس حياتي لله هو ما أريده حقاً. وسألتني إن كنت أريد أن أعمل في بلاد بعيدة حيث أؤدي خدمات للمجتمع. وعندما أجبت نعم، رتبت أمري بحيث أرسلتني لأعمل كنادلة في مطعم تديره أسرة مكسيكية في سان دييغو حيث تعرفت إلى صديقتي العزيزة غابي وقررنا الاشتراك في غرفة واحدة، وبعد ذلك بدأ كل شيء يتحسن. ابتدأت أشفى وأخذت أستمتع بمساعدة الناس، ثم انتقلت صديقتي من شقتنا وتزوجت. وذهبت لزيارة الأم المقدسة مرة أخرى آملة بأن أؤدي اليمين، لكنها قالت إنني لم أمنح نفسي بعد وقتاً طويلاً بما يكفي لأفهم وضعي الجديد وكل ما سأتخلى عنه. تكدرت جداً وجادلتها طويلاً، وهذا نفسه أثبت أن حياتي كراهبة لم تتكرس

بعد. وشعرت بنفسي غبية لكنها كانت صبورة معي واقترحت عليّ أن أجرب العمل في باريس، قائلة: «سنة أخرى فقط وعند ذلك نرى شعورك حينذاك».

ولم تعلم هالي أن اختبارها الحقيقي سيكون مع أسرة رولاند.

- أنا مسرورة جداً لأنني ذهبت مع بول إلى متجر «تاتي» ذلك النهار وتعرفنا إليك!

اغرورقت عينا هالي بالدموع: «وأنا كذلك».

- كم أتمنى أن تبقي هنا بصورة دائمة، لكنني أعلم أنك غير مغرمة بأخي.

- لا يمكن للمرء أن يفعل شيئاً بالنسبة إلى أمر كهذا؟

- أخبرني أبي بأنك هنا فقط لكي تمنحي بول وقتاً ليدرك بأنك لا تحبينه دون أن يصاب بصدمة ويؤذي نفسه مجدداً.

- تماماً.

ولأن هذا كان صحيحاً، قررت هالي أن لا تزيد على تفسير فنسنت.

- هالي؟ ماذا لو قابلت رجلاً يمكنك أن تحبيه مرة أخرى... أتظنين أنك ستبقين راغبة في أن تصبحي راهبة؟

ظهرت صورة فنسنت أمام عينيها: «ذلك سؤال جيد، يا مونيك. وأنا لا أستطيع أن أجيب عليه. الزواج مرة أخرى سيرضي الجزء الأناني من نفسي لكنني، بصفة راهبة، يمكنني أن أنفع الناس أكثر».

- يقول الجد موريس إن الزواج الجيد يتطلب عدم الأنانية من كلا الطرفين لكي ينجح. كما أنه يقول إن الرجل والمرأة يقومان بعمل إلهي عندما ينشئان أسرة جيدة.

قالت هالي: «هو على صواب. على كل حال، اهتمامي حالياً يتركز على بول وحالته العقلية».

- أعلم هذا. أتمنى أن أجعله يخرج مع سوزيت. لطالما كانت مفتونة به.

- هنالك مشكلة دائمة مع الافتتان وهو أنه يأتي دوماً من ناحية المفتون.

أما مشاعر الشخص الآخر فلا تشترك في ذلك.

- أنت تتحدثين عن بول، أليس كذلك؟

- وعن لوك. إنه لم يكفّ عن إغاظتك الليلة الماضية.

- لوك ظريف ولكن...

- لكنه لا يخطف أنفاسك؟ لا تقلقي. سيأتي شخص ذات يوم ويهز كيانك.

- أظنك قلت مرة إن هذا تعبير قديم.

- وهو كذلك لكنني أحبه.

- أظن أبي كان يواعد امرأة عندما كنا بعيدين عن البيت.

- لماذا تقولين هذا؟

- لأنه يتصرف بشكل مختلف. أنا لا أعني بالنسبة إلى بول فقط. لقد بدا مؤخراً.. لا أدري كيف.. وكأن شيئاً ما قد أثاره. كانت لوسي تقول، وهي الفتاة التي تشاركني غرفتي في المدرسة، إن أبي من الروعة بحيث تعجب لماذا لم يتزوج منذ سنوات. ربما الآن، بعد أن كبرنا أنا وبول، هذا ما يفكر فيه.

- لماذا لا تسألينه إن كان متعلقاً بامرأة ما؟

- أخاف من ذلك.

- مونيك... إذا كان ثمة امرأة يهتم بها، عليك إذن أن تثقي بأنها امرأة رائعة.

- ما دام بإمكانها أن تسعده.

همست بذلك بصوت خافت.

قالت هالي: «بعد بقائه أعزباً طوال هذه السنوات، لا أظنه سيأتي بامرأة لا يمكنكما، أنت وبول، أن تحباها أيضاً. ثقي بي. أثناء الأسبوع الماضي اكتشفت أنكما، أنت وبول، عالم أبيكما الحقيقي. أنظري كم كان مرحاً هذه الليلة».

- أعلم هذا. وأنا أريد أن يدوم ذلك إلى الأبد.

وفكرت هالي في أنها هي أيضاً تريد ذلك: «تصبحين على خير يا مونيك».

- تصبحين على خير يا هالي.

- كيف الحال؟ هل يتعبك ميشيل بالعمل؟

- لا، إطلاقاً.

أجابته هالي بذلك، لكن صوته جعلها تفقد تركيزها على عملها أمام الكمبيوتر. ظهرت على الشاشة حروف متنافرة محتها بسرعة. لكنها لم تستطع إلا أن تلاحظ نظراته الساحرة من زاوية عينها.

كان ميشيل جالساً بجانبها فالتفت إلى فنسنت: «إنها تجعل الآن حياتي أسهل. كنت على وشك أن أريها أنحاء غرفة الشحن بالسفن».

- سآخذها بنفسي.

خفق قلبها لسماعها ذلك. بينما قال ميشيل: «لا مشكلة في ذلك يا فنسنت».

- سنتناول الغداء في القصر.

- آه، طبعاً... سأراك الساعة الثالثة إذن، يا هالي.

- لن تعود هالي قبل صباح الغد. إنها لم تستقر بعد.

تناولت هالي حقيبة يدها، محاولة أن تخفي ذعرها من برودة لهجته. لم تره قط من قبل يعامل أحداً بهذا الشكل.

وقفت وهي تقول: «شكراً لكونك معلماً صبوراً يا ميشيل. سأكون هنا في الثامنة صباحاً».

- بكل سرور.

تبعت خطوات مضيفها الواسعة إلى خارج المكتب.

سار إلى حيث سيارته متوقفة أمام باب مكتبه، ثم انتظر أن تلحق به. ولم تفهم هي شيئاً عندما فتح باب السيارة وساعدها على الصعود.

بعد أن جلس أمام المقود، نظرت إليه بحيرة: «ظننت أن الغداء جاهز».

- سنذهب حالاً إلى البيت إن كنت جائعة. لكن اعلمي أن ميشيل هو

«زير نساء» المكتب، وأنا أريده أن يعلم أنك غير منحلة... وهو لا يهتم لكونك راهبة غير مكرسة.

- أنا أقدر لك اهتمامك، يا فنسنت، لكنني أستطيع رعاية نفسي.

- ليس من وجهة نظري. عندما كنت تعملين، كاد يأكلك بعينيه.

كانت هالي لاحظت أن ذلك الرجل يعاملها بشيء من الغرابة، لكنها لم تتوقع أن يلاحظ فنسنت ذلك.

- حالما يتم تدريبك، يمكنك أن تستعملي الكمبيوتر الذي في مكتبي. فأنا أنجز معظم أعمالي على التليفون.

وشعرت هالي بالحاجة إلى الاتصال بغابي أكثر من أي وقت آخر.

- فكرت في أن نستغل الوقت في شراء مواد تموينية لمطبخك، تعلمين أننا نرحب بك لتأكلي في القصر في أي وقت، لكنك ستحتاجين إلى طعام حين تريدين أن ترتاحي في الكوخ. هناك أنواع ممتازة من الجبن في «بولي» وهي مدينة تبعد خمسة أميال من هنا. وعند الغداء يقدمون أجباناً وكرواسون شهية.

لم يكن لدى فنسنت فكرة عما يفعله بها. وماذا لو علم بول بذلك؟

- أين التوأمان؟

- أتصور أنهما يجولان بأصدقائهما بسيارتيهما الجديدتين.

انطلق بالسيارة، وعندما وصلا إلى البوابة المؤدية إلى المزرعة، انحرف في اتجاه آخر. وكان شهر حزيران من الحرارة بحيث فتحت النافذة وهي تقول: «أنا أتذكر أول سيارة اقتنيتها. كان ذلك أروع يوم في حياتي».

فتمتم: «أما أنا فكان عليّ أن أستعمل الموتوسيكل حين تزوجت. حتى في ذلك الحين كان عليّ أن أشارك الجد موريس سيارته».

كل ما يخبرها به يجعلها تحبه أكثر: «كم كان عمرك عندما اشتريت سيارة خاصة بك؟».

- كنت في السابعة والعشرين، بعد تخرجي من الجامعة بسنتين.

- لا سيارة فيراري إذن؟

فلوى شفتيه: «لا. كان من المفروض أن تتلاءم السيارة مع احتياجات توأمين وجدّ».

وسرعان ما وصلا إلى المدينة الغربية بطرازها العائد إلى القرون الوسطى. وفي السوق أطعمها خوخاً وكرواسون وشعرت وكأنهما زوجان سعيدان يتسوّقان، وتحدثا عن مختلف الأمور. كانت أوقاتاً تريد أن تختزنها في ذاكرتها مدى الزمن.

بعد ثلاث ساعات، عادا إلى الكوخ. ساعدها على إدخال مشترياتها وأخذ يصفّها على الرف.

كان هذا مؤشراً سيئاً... فهي لم تظهر أي مقاومة إزاء انفراده بها هذا النهار. والآن حين حان وقت خروجه، شعرت بنفسها متلهفة إلى بقائه. كان قلبها يخفق بعنف، وشعرت بنفسها محمومة.

- لماذا تريدين أن تعودي إلى أميركا الجنوبية؟

جاءها سؤاله وهي تقفل باب الثلاجة. لم تضيّع مونيك الوقت فأخبرته بكل حديث الليلة الماضية. كانت ابنته خائفة من تغيير في حياتها تراه قادماً.

عندما استدارت وجدته واقفاً أمامها مباشرة ما جعلها غير قادرة على الحركة دون الاحتكاك به. وكانت عيناه مشتبكتين بعينيها بعنف ناري: «هل تعلمين في قلبك أن ذلك استدعاء من الله؟ أم تشعرين بأن ذلك ما هو إلا الطريقة الوحيدة لرد جميل الأخت كارلوتا لمساعدتها لك وتشجيعك على التشبث بالحياة إلى أن ينقذوك؟»

طوال الأسبوع الماضي وهالي تلقي على نفسها هذا السؤال. وأخيراً هزت رأسها: «لا أدري... لا أدري!».

وتعلقت صرختها المعذبة في الهواء.

- يتملك مونيك الخوف من اليوم الذي يستيقظ فيه بول من حلمه هذا ليراك ترحلين.

فخفضت بصرها: «أعلم هذا».

- ألا يمكنك أن تبقي هنا في سانت جينز بصفة راهبة غير مكرّسة إذا شئت؟ ألا يؤدي هذا نفس الغرض؟ بهذا تخدمين الله وتكرّمين الأخت كارلوتا.

جذبت نفساً مرتجفاً: «الأمر ليس بهذه السهولة، يا فنسنت».

كانت تفكر في أنها لا تحتمل البقاء بقربه بقية حياتها دون أن تكون زوجته.

- ولماذا لا؟ ابنتي بحاجة إليك أكثر من بول... وقريباً جداً ستكون بحاجة إلى من يدعمها في مواجهة أمور الحياة وإلا انتهت، كأخيها، في المستشفى.

- فنسنت، ألا تدرك أن ذلك يعود إلى قلقها بشأنك؟

فقطب حاجبيه: «لا أفهم ما تقولين».

عضت شفتها... ربما هي تقص حكايات خرافية، لكنه بحاجة إلى أن يفهم كل ما يتعلق بولديه إذا كان يريد أن يساعدهما.

- تقول مونيك إنك تغيّرت منذ أحضرتهما من باريس. إنها تظنك مغرماً بامرأة ما وستخبرهما في الوقت المناسب بأنك ستتزوج.

٨ - غضب وندم

تلهف فنسنت إلى أن يسحق هالي بين ذراعيه. لكنه، إذا فعل ذلك، يكون قد تخلّى عن كل المبادىء التي يؤمن بها.

وبشكل ما، وجد القوة للابتعاد عنها. لقد أخذها بين ذراعيه أمس ليواسيها، ولكن لا عذر له اليوم.

- هل هذا صحيح؟

توسّلت إليه أن يخبرها وهي تنظر إليه بعينين رائعتين لا يمكنه سبر غورهما.

لم يساوره الشك في أنها كانت تسأله لأجل مونيك. ولكن، وليساعده الله، كان يريد أن يعتقد بأن هالي تسأله لأجل نفسها هي أيضاً. كيف يمكن أن يحترق شوقاً إليها دون أن يكون لديها نفس الشعور بالمقابل؟

لا يهم حبها لزوجها السابق، فزواجهما لم يدم لأكثر من أربع وعشرين ساعة.

لقد أمضى، حتى الآن، أسبوعاً معها، وهو يشعر في أعماقه، بأنها غير مبالية به. وقال يجيبها: «نعم، هناك امرأة. لكنني لم أطلب منها بعد أن تتزوجني».

- آه، فهمت.

لم تكشف عن شعورها ولو بطرفة من عينها أو أي صوت من حلقها، بينما شعر هو وكأنه يقف على حافة هاوية على وشك أن تنهار تحت قدميه. وتابع يقول: «قبل أن أفعل شيئاً يغيّر حياتنا جميعاً، أريد أن أتأكد من أن بول لن يصاب بهستيريا تجعله يقدم على تصرف متهور مرة أخرى. وقد

ينجح في المرة التالية».

فتأوهت: «لا نستطيع أن نسمح لهذا بأن يحدث. إنني أقوم بكل ما بإمكاني لكي أمحو افتتانه هذا بي».

- أتظنينني لا أعلم هذا؟

- المشكلة هي أن هذه الأشياء لا يمكن استعجالها. كل ما أرجوه هو أنه، هذا المساء، . . .

- هالي؟

وتعالى طرق على الباب، وكان هذا بول، ونظرت إلى فنسنت محذرة.

- هالي؟ بابا؟ هل أنتما هنا؟

ضغط فنسنت ذراعها: «سأتصرف. تابعي أنت تنظيم علب البقالة».

وبعد دقائق، سمعت هالي وقع خطوات: «هالو، هالي».

وضعت صندوق الحبوب في الخزانة، ثم استدارت إلى بول: «تبدو سعيداً. ما رأيك بسيارتك الجديدة».

فابتسم: «رائعة! حتى أن لها فتحة في السقف».

- يا لك من محظوظ! هل رآها كل شخص في سانت جينز؟

فضحك: «تقريباً. هل تريدين أن تذهبي في نزهة بها؟».

- يسرني هذا جداً.

ونظرت إلى ساعتها. كانت الرابعة وعشر دقائق: «هل يمكننا الذهاب في السادسة؟ يمكنك أن تريني كل مواصفاتها حتى السابعة وهو موعد الذهاب إلى الكنيسة».

زالت ابتسامته: «بكل تأكيد».

إنها تؤجله مرة أخرى لكنها الطريقة الوحيدة للتصرف معه.

- الأمر هو أن أباك ساعدني في شراء التموين الأسبوعي. والآن، عليّ أن أعد عشائي وبعد ذلك أستحم ثم أقوم بمخابرة تليفونية هامة.

وسارت إلى درج فتحته وأخرجت منه لوحاً من حلوى المرصبان وضعته في يده: «خذ. هذه مؤونة أخبئها لليوم الممطر».

- ماذا يعني هذا؟

- ألم أعلّمك هذا؟ همم. . . لا أظنني فعلت. اليوم الممطر هو عندما تسوء الأمور.

بعد أن استوعب شرحها، أزال الغلاف الخارجي للّوح وقضم منه قطعة كبيرة.

- بول، ألم تفهم ما قلته لك؟

- بل فهمت.

واستمر في قضمه حتى أنهاه فألقى بالورق في سلة المهملات.

- أفهم من هذا أنك لم تتوقف لتناول الغداء.

- تناولنا، أنا ولوك، غداءً ضخماً.

فقطبت جبينها: «هل حدث شيء سيء؟».

- أمضيت وقتاً رائعاً حتى جئت لآخذك، لكنك دوماً مشغولة بشيء آخر عليك أن تقومي به، أو في مكان ما جئت منه لتوّك، أو عليك أن تذهبي إلى مكان ما. يبدو أن الأمور تغيّرت كثيراً عنها في باريس.

لقد ابتدأ يتصدّع.

- لقد تغيّرت الأمور فعلاً. كان لنا، نحن الثلاثة، أوقات وأيام معيّنة في الأسبوع فقط، يمكننا فيها أن نجتمع معاً. لو رافقتني على مدار الساعة، لأدركت أنني ألتزم ببرنامج محدد.

فحدّق إليها بحدة: «أنت لا تتوقفين أبداً».

- لا أستطيع. هكذا خلقني الله.

أخذ بول، كعادته، ينقر بأصابعه على الطاولة، ثم توقف فجأة: «سأعود في السادسة».

- شكراً يا بول.

وسارت معه إلى الباب: «إلى اللقاء قريباً».

أقفلت الباب وهرعت إلى غرفة نومها. كانت الساعة بعد الثامنة صباحاً بقليل في سان دييغو. لابد أن طفل غابي ما يزال نائماً، فهي تكره أن

توقظه، لكن الأمر مستعجل هنا.

وأخذت تدعو الله أن تكون غابي في البيت. وأوشكت أن تضع السماعة لتعود بعد «الدوش» عندما سمعت صوت شخص ما: «هالو؟».

- غابي؟

ردّت بعد تردد قليل: «هالي؟ ما أروع أن أسمع صوتك. هل عدت إلى كاليفورنيا؟».

غلبت هالي المشاعر فانهمرت دموعها وقالت وهي تشهق: «لا، ما زلت في فرنسا. لديّ مشكلة».

وعندما نظرت هالي إلى ساعتها مرة أخرى وجدتها السادسة إلا ربعاً. ولم تصدق أنهما تحدثتا ساعة ونصف: «عليّ أن أقفل. سيكون بول هنا بعد دقائق».

- انتظري وأخبريني شيئاً واحداً. . . أنت تصدقين حقاً أن هناك امرأة أخرى في حياة فنسنت. . .

- فنسنت رجل طبيعي مليء بالرجولة. وطبعاً هناك نساء يرغبن في صحبته.

ومسحت دموعها بملاءة السرير.

- هالي. . .

- إذا كنت تتحدثين عن امرأة محددة لا أدري. لديه موعد مع شخص ما هذا المساء. كل ما أستطيع قوله هو إذا كان لها وجود فهي متفهمة له تماماً لعدم إحضارها إلى القصر. لكن وضعه مع بول مزعزع ولهذا هو لا يجرؤ على القيام بتصرف خاطئ.

- أظنه فضح نفسه بطلبه منك البقاء في سانت جينز لأجل ابنته. يبدو ذلك لي أشبه بستار من الدخان للاختباء خلفه.

- أريد. . . أريد أن أعتقد ذلك، أنا أيضاً ولكن ماذا لو كنت أنا مخطئة؟

- أتتذكرين عندما هربت من ماكس؟

- وكيف أنسى؟ أنا من نصحتك بأن تستقلي الطائرة إلى موطنك في نيو جرسي.

- وهل نسيت أننا حللنا كل مشاكلنا؟ إنني متزوجة من فتى أحلامي الآن. هل تسمعينني يا هالي؟

- نعم.

- هذه هي المسألة. الأمّان المقدستان قالتا إنك لست جاهزة بعد لإداء قسم الارتباط. والآن يمكنك أن تري السبب. لقد أرسلوك إلى فرنسا لسبب ما. إن عليك أن تقيمي هناك وتدعي هذا الأمر يفسر نفسه بنفسه حتى يتضح الجواب.

- ليس لدي خيار طالما بول بهذه الحالة الدقيقة.

- أتعلمين ما أظنه؟ أنت أروع امرأة عرفتها.

- أنا أحبك للغاية يا هالي. أنت لن تبتعدي إلى الأبد.

- أواثقة أنت؟

- نعم. اتصلي بي متى شئت. أنا أعني ذلك!

- سأفعل. شكراً يا غابي.

وضعت هالي السماعة، ثم اندفعت إلى «الدوش». رغم أن حديثهما لم يحل شيئاً، فقد شعرت بتحسن لتمكنها من الإفضاء بهذا العبء إلى صديقتها الحميمة.

وعلى كل حال، بعد أن انتهت من ارتداء بلوزتها وتنورتها، أصبح هناك شيء واضح في ذهنها.

منذ قدومها إلى سانت جينز، عشقت كل فرد في أسرة رولاند. ذلك لأنها، هي نفسها، نشأت بين أحضان أسرة متحابّة بالغة الحيوية، ثم افتقدت كل ذلك.

فكرة أن تصبح جزءاً من مجموعة من الأخوات التقيات بقية حياتها، لم تعد تعني لها كما في السابق. من الطبيعي أن تحب الجزء المتعلق بالتعليم، ولكنها ستفتقد دوماً إلى الاتصال بالآخرين.

عادت بأفكارها إلى الأسبوع الفائت عندما أدركت أن زمن وداعها النهائي لمونيك وبول في باريس قد حان، فشعرت بأنها ستعاني من فراق بالغ القسوة. وضع ذلك في ذهنها شكوكاً جادة بالنسبة إلى صلاحيتها لحياة الرهبنة.

إضافة إلى هذه المشاعر المتضاربة، أتى تعرّفها إلى فنسنت... مجرد وجوده كان يؤثر بقوة على الناحية الأنثوية من طبيعتها التي ظنت أنها ماتت ودُفنت مع راؤول.

عليها الليلة أن تواجه حقيقة شعور كانت تتجنبه مؤخراً.

كانت راهبة أكثر دنيوية مما ينبغي، وإلا لاتصلت بالأم المقدسة، تطلب المساعدة، بدلاً من غابي. ومع ذلك هل كانت كلمات صديقتها نابعة من حدسها وهي تقول: (الأمّان المقدستان قالتا إنك لست جاهزة بعد لإداء قسم الإرتباط، والآن يمكنك أن تري السبب. لقد أرسلوك إلى فرنسا لسبب ما. إن عليك أن تقيمي هناك وتدعي هذا الأمر يفسر نفسه بنفسه حتى تتضح الأجوبة).

بعد ثلاث ساعات، إذا بإحدى شكوك هالي تتحقق دون أي التباس.

بعد تمهيد الأب الكاهن أوليفييه لها، أظهرت مجموعة المراهقين في الكنيسة حماسة كبرى لفكرة الدروس الإنكليزية، وتقرر أن تعطي الدروس يومي الإثنين والأربعاء من السابعة إلى الثامنة والنصف مساء خلال الصيف.

تملكت هالي الحماسة حين فكرت في أنها توظف شهادتها التعليمية بشكل صحيح. لكنها لم تدرك أن متعتها الحقيقية تكمن في العودة إلى القصر، إلى من اعتادت أن تحبهم، إلاّ بعد أن صعدت إلى سيارة بول الذي كان ينتظرها لكي يعود بها إلى بيتها. العودة إلى التوأمين، والجد موريس، وبوريغار الكلب وفنسنت...

مهما خبأ لها المستقبل أيقنت بأنها لن تشعر بالاكتمال أبداً إذا أصبحت راهبة.

قدرتها على الاعتراف بذلك لنفسها أخيراً منحتها راحة نفسية بالغة.

انتبهت فجأة من استغراقها في التفكير، إلى أن السيارة توقفت... فرفعت عينيها.

لقد أخذها بول إلى نفس البقعة الرائعة الجمال على ضفاف النهر، والتي كان فنسنت أخذها إليها هذا الصباح.

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق، وكان المشهد بمثل روعته من قبل. لكن الرجل نفسه لم يكن وراء عجلة القيادة. وتذكرت كلامها عن مدى حبها للركوب في سيارة جديدة.

السيارة الجديدة لم تعالج اكتئاب بول بل جعلته يزداد عمقاً، لأن ما يريده حقاً غير ممكن.

قد لا يكون ما قالته لبول الآن، هو الشيء الصواب. ومع ذلك شعرت بأنها يجب أن ترضيه قبل أن يعودا إلى البيت.

- إذا كان هذا هو مكانك المفضل، فقد رأيت الآن السبب.

كان مستلقياً على المقعد وذراعه ممتدة على المسند. فمال برأسه إليها وقد غامت عيناه وقال بخشونة: «بل هو مكان أبي المفضّل وأنت عرفت ذلك قبل الآن».

فشعرت بالسخونة تصعد إلى وجهها.

- لويس هو أحد مستخدمي أبي وكان يعمل في كروم العنب وقد رآكما معاً.

وصدر عن بول صوت قد يكون معبّراً عن الغضب أو الألم أو الإثنين معاً: «لقد أخبر كل شخص في المزرعة بأن أبي لديه صديقة».

فارتعشت، وتملكها أسف بالغ لأجله.

- على الأقل أنت لم تنكري وجودك هنا معه. وهذا شيء أقدّره فيك دوماً، فأنت صادقة.

وزحفت يده إلى نهاية شعرها فوق رقبتها: «لقد أخبرت كل شخص بأن ينسى ذلك لأنك راهبة غير مكرّسة وهذا أخرسهم جميعاً، لكنه لم يمنعهم من

الظن... كما لم يمنعني أنا من الظن».

وشدّ عدة خصلات من شعرها يلفّها على أصابعه، ليس بشدّة، ولكن بشيء من الضغط لكي يجعلها تدرك مبلغ غضبه.

وعاد يتابع: «كنتما أنت وأبي على انفراد عندما جئت إلى الكوخ بعد الظهر وفاجأتكما. لقد شعرت بذلك في اللحظة التي فتح لي فيها الباب. لقد كان شخصاً مختلفاً عن ذلك الذي عشت معه ثمانية عشر عاماً، وهو يقف بادي السعادة بنفس المظهر الذي كان والد جول يبدو به بعد قضائه عدة ساعات مع صديقته. وقد بقي بابا يتحدث إليّ، وقد عرفت السبب. كان يحاول أن يمنحك وقتاً. وعندما دخلت المطبخ لم أكد أعرفك... لقد كنت.... مليئة بالحياة. تباً لك، يا هالي....».

وجاءت الكلمة الأخيرة أشبه بشهقة باكية.

فقالت بلطف: «أنت مخطىء. لم يعانقني سوى رجل واحد من رجال أسرة رولاند، وهو أنت يا بول».

انتصب كالسهم وقد بدا على وجهه مزيج غريب من الاضطراب واليأس. أدركت أنه يريد أن يصدقها، لكن الغضب كان مسيطراً عليه.

قال وقد نفرت عروق عنقه فوق ياقة قميصه العالية: «أريدك أن تغادري سانت جينز... إبتعدي فقط عن ناظريّ ولا تعودي أبداً».

كان يتألم كطائر جريح. ولكن هذا بول، وهو ابن أبيه.

لقد بلغ أبوه ذروة الألم عندما دخل عليهما، هي وبول في باريس. ولم يكن يتقبل حدوث أي نقاش أو إقناع حينذاك كما أن بول لن يتقبل أي نقاش أو إقناع الآن.

ما العمل؟

نظرت إلى خارج النافذة. رغم أن الظلام كان ينتشر بسرعة إلا أنها تعرف طريق العودة إلى القصر. ومع ذلك، لم تجرؤ على أن تترك بول بقرب النهر فيخطر له أن يقفز إليه. لقد سبق وحذرها فنسنت من خطر ذلك.

- بول... أنا أدرك أنك تحب أن تنفرد بنفسك حالياً، لكن هذه المنطقة

ما زالت غير مألوفة لدي. فأنا أخاف أن أتوه إذا ذهبت إلى بيتي وحدي. هل أنت بخير؟

التفت إليها بعنف وقال بحدة: «طبعاً أتقسمين بالله بأن أبي لم يحاول التودد إليك؟».

فابتلعت ريقها بصعوبة: «أنت لا تريدني أن أجيب هذا السؤال لأنك تعرف الحقيقة».

فأجاب وقد تملكته رجفة: «أنا أعرف ما رأيت. إذا كان ذلك لم يحدث بعد، فهو سيحدث!».

وفجأة، أدركت ما عليها أن تفعل: «هذا خطأ مرة أخرى يا بول. إذا سمحت بأن توصلني إلى الكوخ، سأحزم حقيبتي ثم أذهب إلى سانت جينز. وهناك قطار سيغادر إلى باريس الليلة، وأنا أنوي أن أستقلّه. لو كنت بحالتك الطبيعية كنت طلبت منك أن تأخذني إلى باريس في سيارتك الجديدة وتتركني هناك عند «كليرمونت آبي».

أضافت ذلك لكي تؤكد له أنها جادة تماماً. وعند ذلك أدار السيارة وتنفست الصعداء عندما انطلق ليتوجه إلى الكوخ. وطوال الطريق لم يقل كلمة واحدة.

وعندما وقف أمام الباب قالت له: «يمكنك أن تبقى هنا وتنتظرني، أو أن تدخل بينما أحزم أمتعتي. لك الحرية في أن تختار».

وضعت أغراضها في حقيبتها، ووضعت جواز سفرها في حقيبة يدها، وعندما عادت إلى غرفة الجلوس، كان بول واقفاً عند عتبة الباب المفتوح.

بدا الذهول عليه وهو يراها جاهزة للرحيل: «أنت تمزحين بالنسبة إلى مسألة الرحيل. إنك تحاولين أن تنتقمي مني لقسوتي عليك».

- لا، أبداً. أنا لم أحضر إلى سانت جينز لكي أثير مشاكل في أسرتك أو أثير أقاويل تؤلمك. أنت ومونيك عدتما إلى البيت لتكونا مع أبيكما مرة أخرى. لقد أنجزت رسالتي هنا بنجاح. وإذا لم تشأ أن توصلني بسيارتك سأتصل بالقصر وأطلب من شقيقتك أن توصلني إلى المحطة.

فهز رأسه: «لا ترحلي، يا هالي. أنا لم أعن شيئاً مما قلته».

فقالت باسمة رغم أن قلبها كان يتحطم: «أنا أعلم أنك لم تكن تعنيه. ولكن حان الوقت لكي أرحل».

سارت نحو المدخل وأرغمته أن يتنحى جانباً ريثما أقفلت الباب. لم يكن هناك أثر لسيارة فنسنت. كان ما يزال يسهر في الخارج. واخترق الألم قلبها. سواء كان مع امرأة أخرى أم لا، لم يعد هذا شأنها.

تباطأ بول خلفها، ووضعت حقيبتها في المقعد الخلفي بنفسها، ثم صعدت إلى الأمام وانتظرته أن يأتي ليعود إلى قيادة السيارة.

حدّق إليها بعينيه الحمراوين، وقال بعجز: «لا يمكنك أن ترحلي بهذا الشكل! ماذا بالنسبة إلى وظيفتك الجديدة؟ وصفوف التعليم في الكنيسة؟».

- بإمكاني أن أعتمد عليك في شرح كل شيء.

نظر إليها وهي تضع المفتاح في صندوق الأوراق أمام مقعدها. وبدا على وشك البكاء: «لو عرفت مونيك بهذا، لوجدت طريقة تمنعك بها من السفر».

- لهذا السبب تحديداً أفضل أن توصلني أنت وعندما تستيقظ هي غداً، سأكون في باريس حيث لا يعرف مكاني أحد.

فسرخ: «لا تقولي هذا!».

- بول، بحق صداقتنا القوية، هل لك أن تأخذني إلى المدينة الآن، من فضلك؟

اغرورقت عيناه بالدموع، فمسحها بكمه، ثم تحرك بالسيارة وكانت كتفاه تهتزان بشهقات صامتة طوال الطريق إلى محطة القطار.

هذه المرة نزل قبلها وحمل حقيبتها بينما توجهت هي إلى الداخل لتشتري تذكرة.

- تذكرة سفر باتجاه واحد.

القطار الذاهب إلى باريس سيصل في أي دقيقة، وسيكون الأخير حتى الصباح.

- الليل جميل جداً. هل ننتظر على الرصيف؟

كان وجه بول ينطق بالعذاب وهو يتبعها، قائلاً: «لو كان لديك أي اهتمام بي، لما فعلت هذا».

- أنا أحبك كما أحببت أخي جون.

قالت هذا ثم سمعت صوت القطار قادماً إلى المحطة.

جمد بول مكانه: «أنا أعلم أنه كان لديك أسرة، لكنك لم تذكري أبداً أنه كان لك أخ».

- كان أخي الوحيد ويكبرني بسنتين، وأنت تشبهه من نواحٍ كثيرة. ليس من ناحية الشكل ولكن في المزايا.

- ماذا حدث له؟

- اسأل مونيك، وهي سوف تخبرك بكل شيء.

- لعل هذا هو السبب في شعوري بهذه الصلة بك عند بداية تعارفنا.

ابتدأ القطار يتوقف. إنه سينتظر فقط أن يصعد من لديه تذكرة ثم يتابع سيره. وأسرعت هي تصعد إليه. ولم يكن هناك غيرها من المسافرين، كانا وحدهما.

أحست بتمهله في مناولتها حقيبتها. فقالت ودموعها تنهمر: «أحبك كأخي، يا بول. عندما حاولت أن تنتحر، شعرت بأنني لن أستطيع احتمال خسارة أخ آخر. أرجوك أن تدع أباك يساعدك. إنه يحبك كثيراً. وكذلك مونيك والجد موريس. كل شخص بحاجة إلى أسرة تدعمه كأسرتك، ستكون لديك حياة رائعة. إلى اللقاء يا صديقي العزيز».

وشهقت باكية، وسار القطار مترنحاً ثم خرج من المحطة. فتشبثت بالدرابزين وأخذت تلوّح له بيدها.

- انتظري!

صرخ بذلك فجأة وأخذ يركض بجانبها، لكن سرعة القطار ازدادت فلم يستطع اللحاق به.

أخذت تنظر إليه حتى أصبح بقعة داكنة في النور القادم من المحطة. ثم

انعطف القطار، وغمر الظلام كل شيء.

بعد مساء طويل منهمك في «فندق فلوريسان» في سانت جينز، لم يستطع فنسنت أن يعود إلى القصر بالسرعة الكافية.

كانت الأقاويل تملأ المنطقة. أراد فنسنت أن يخمد أي حديث عن اهتمامه بهالي. وهكذا أمضى المساء يتعشى ويرقص مع مادلين بيغي، وهي سمراء مطلقة رائعة الجمال سبق وخرج معها مرة. وكان يرجو أن يدحض وجودها معه، كلام أي شخص يعرفه. وعند الصباح، سينفي المصنع كل المعلومات الخاطئة. هذه كانت خطته. إنه مستعد للقيام بأي شيء لكي يحمي بول من الألم.

سقطت أنوار سيارته الأمامية على سيارتي التوأمين المتوقفتين في الفناء الأمامي. كانت الساعة بعد الواحدة وافترض أن ولديه نائمان.

كان عادة يوقف سيارته أمام القصر، لكن قوة ما جعلته يقود السيارة إلى خلف القصر، متسائلاً عما إذا كانت هالي ما زالت مستيقظة.

خفق قلبه وهو يرى نوراً ما زال في الصالون.

وعندما عاد توقف أمام مكتبه، وجلس هناك يفكر مدة عشر دقائق والصراع يدور في نفسه.

مهما كان العذر الذي سيحتج به إذا ذهب إلى بابها يطرقه، فهو سيهدم كل مساعيه في وضع الخطط التي تدحض الأقاويل التي يمكن أن تعذب ولديه.

وهكذا، على رغبته في رؤية هالي أن تنتظر حتى الصباح. وستكون هذه ليلة طويلة دون نهاية.

وخرج من سيارته ودخل إلى مكتبه دون أن يجرؤ على النظر نحو كوخها مرة أخرى. دوماً في مكتبه عمل يمكنه القيام به. في الواقع، كان الوقت الآن هو الأفضل للقيام بالاتصالات التليفونية لإنجاز أعماله في ما وراء البحار حيث فرق الوقت ما بين ثماني وعشر ساعات. وهكذا ألقى بسترته على الكرسي، وفتح أعلى قميصه وشمر كمّيه، ثم تناول ملف الأوراق وابتدأ

العمل.

ولكن بعد عشرين ثانية فقط أدرك أنه لا يستطيع أن يركز على شيء. غداً سيحضر هالي إلى مكتبه هنا ويدربها بنفسه. فما دام لا يستطيع التقرب منها في الأيام الأخرى، يمكنه على الأقل أن يشاركها عمله.

الناس تأتي إلى مكتبه وتذهب طوال النهار، والباب مفتوح على الدوام. وسرعان ما يدرك الآخرون أنها راهبة غير مكرسة صادقها ولداه في باريس. ومع الوقت تنتهي الأقاويل.

ثم، ماذا بعد ذلك؟

وتأوه، غير قادر على الجواب.

- بابا؟

نبرة الذعر هذه في صوت مونيك في هذا الوقت المتأخر فاجأته. نظر فرأى ابنته في معطفها المنزلي تتقدم نحوه. وما إن وقف حتى ألقت بنفسها بين ذراعيه وقد انهمرت دموعها.

- ماذا حدث يا صغيرتي؟

- إنه بول. إنها المرة الثانية هذا الأسبوع الذي ينضح فيه جسده بعرق بارد.

- أين هو؟.

- في غرفة نومه. لقد جاء إلى غرفتي في أول الليل طالباً أن يعلم ما أخبرتني به هالي عن أسرتها. ظننته يعلم عن تلك المأساة، وبعد أن شرحت له كل شيء، تمتم بشيء عن قيامه بعمل لا يقبل الغفران، ثم ركض إلى غرفته. تبعته لكنه أقفل الباب في وجهي وأخبرني أن أبتعد عنه. ولم يستطع أن يتوقف عن الشهيق والبكاء يا أبي. خفت عليه جداً فأخبرته بأنني سأبحث عنك وأخبرك، لكنه جعلني أتعهد بأن أدع الأمر سراً. وعندما سألته عن السبب قال إنك إذا عرفت ما فعله فلن تصفح عنه أبداً. وعدته بأن لا أخبرك بشيء. ولكن بعدما أخبرني به الدكتور موروا، أدركت أن عليّ أن أخبرك. كدت أيأس من عودتك، ثم رأيت سيارتك من النافذة،

لكنك لم تحضر إلى غرفتك، وهكذا أسرعت إلى هنا.

شدّد فنسنت من احتضان ابنته. الحمد لله أنه لم يطع غريزته ويذهب إلى كوخ هالي.

- أنت قمت بالأمر الصواب، لا يمكن أن يكون بيننا أسرار في هذا البيت، وإلا لن يتحسن بول أبداً. دعينا نذهب إليه.

وحمل ملابسه وأسرع خلفها. وقبل أن يصلا إلى جناح بول في الطابق التالي، استطاع أن يسمع شهقاته التي تلوي القلب. عادت به الذكريات إلى الماضي عندما هددته أرليت بأن تجهض طفلهما، وبعد أن توسل إليها بأن لا تفعل ذلك، هرع إلى الكرم مذعوراً حيث أمضى جزءاً كبيراً من الليل وهو يشهق. وعندما جاء الصباح ذهب إلى جده يلتمس العون.

وها هو ذا ابنه يحتاج الآن إلى عون!

طرّق ابنته بذراعه وطرق الباب: «بول؟ علينا أن نتحدث. إفتح.. وإلا خلعت الباب».

انتظر خمس دقائق قبل أن يسمع دوران المفتاح في القفل. ودفع الباب فانفتح.

كان ابنه منهاراً على أقرب مقعد، منفرج الساقين محني الرأس بشكل بالغ التعاسة والذلة.

تنفس فنسنت بعمق ثم قال: «لا شيء في هذه الحياة لا يمكن أن نصفح عنه إذا كان لدينا الحب الكافي يا بول. مهما كان ذلك الذي يحطمك، يمكنك أن تخبرني به».

وببطء، رفع بول رأسه: «أنا كاذب، يا أبي».

- لست وحدك.

فأخذ يغالب دموعه: «إنها كذبة خطيرة».

- كل الكذب خطير. ماذا عن الكذبة عن أمك التي جعلتك تصدقها؟

- ولكن كان لديك سبب جيد لذلك. أنت لم تشأ لي ولمونيك بأن نأخذ عنها فكرة سيئة. أما كذبتي فهي مختلفة.

ولم يستطع فنسنت أن يصدق ما يسمعه: «من أية ناحية؟».

جعل القلق فنسنت يشعر وكأنه سيقفز من جلده، بينما وقفت مونيك بجانبه تنتظر مرتجفة.

- ما تمنّيت الموت قط.

عندما استوعب فنسنت كلماته، جعله الفرح يشعر بدوار. بينما تابع بول: «لم أكن أحاول أن أنتحر... سبب اصطدامي هو أنني كنت غاضباً فلم أعرف إلى أين كنت ذاهباً».

فقالت مونيك: «أنا أدركت هذا. أنت كذبت على الطبيب لكي تمنع هالي من مغادرة فرنسا».

أومأ بول ثم نظر إلى أبيه بخجل: «كما أنني أردتك أن تشعر بالذعر لأنك لم تستمع إليّ».

- لم يعد أي من ذلك هاماً الآن.

وجذب ابنه يحتضنه بشدة.

- ولكن هناك شيء آخر أريد أن أخبركما به.

فشعر فنسنت فجأة بشيء يلوي قلبه. بينما تابع بول:

- لقد رحلت هالي.

ترنح فنسنت لما سمع ذلك، بينما صرخت مونيك: «إلى أين؟».

- عادت إلى باريس، وهذا ذنبي أنا.

صدرت عن فنسنت آهة دفعت ابنته قوية الملاحظة إلى أن تهتف: «بابا؟ هل أنت بخير؟ تبدو شاحباً كالشبح».

فقال فنسنت وهو يجلس على حافة سرير بول: «ربما هي صدمة نشأت من كل هذه المفاجآت الليلة. أخبرنا بما حدث يا بول».

بدت نظرة كئيبة في عيني ابنه: «بعد أن أخذتها في سيارتي، فعلت شيئاً فظيعاً».

- استمر.

- اتهمتها بأنها على علاقة بك.

كانت هذه قنبلة جديدة.. قنبلة لم يكن فنسنت يتوقعها. ولكن عندما تذكر النظرة الغريبة في عيني بول في اللحظة التي خرج فيها فنسنت من كوخ هالي بعد ظهر ذلك النهار، أخذ كل شيء يصبح مفهوماً.

بقيت مونيك هادئة بشكل غريب. ورآها تهبط على كرسي منحنية الرأس. وقال بول: «كنت أعلم أن هذا غير صحيح. ولكن بعد أن قال لويس إنه رآك مع هالي عند النهر، وأنت تعرف كيف يصبح عندما يعتقد أن هناك شيئاً ما، غضبت».

كان فنسنت يعرف بالضبط كيف يصبح لويس، وكذلك ميشيل، وكثيرون مثلهما.

- هل هذا ما جعل هالي تغادر سانت جينز؟ الأقاويل؟

سأله فنسنت هذا محاولاً أن يبدو طبيعياً بينما كان يموت في داخله.

أخذ بول يذرع الغرفة ثم وقف والتفت إليه: «لا بل قلت إنه حتى ولو لم يحدث شيء بينكما بعد، إلا أن ذلك مسألة وقت... ثم... ثم قلت لها أن تبتعد عن حياتي. فقالت إنها ستفعل حالما أعيدها إلى الكوخ لتحزم أمتعتها، قائلة إن رسالتها هنا في سانت جينز قد تمّت».

وتأوه: «لم أستطع أن أمنعها... وفي محطة القطار اعترفت بأنها أحبتني كأخيها الذي قُتل في حادث اصطدام الطائرة ذاك. ثم توسلت إليّ أن أسمح لك بأن تساعدني، يا بابا. لم أكن أعلم حتى تلك اللحظة أنها ما زالت تظن أنني حاولت قتل نفسي فركضت خلفها لأخبرها بالحقيقة، لكنني لم أستطع أن أدركها لسرعة القطار. لقد أفسدت حقاً كل شيء».

وانهمرت دموعه. وكان فنسنت أكثر تحطماً من أن يستطيع التفكير، ولكن كان عليه أن يفعل شيئاً يساعد ابنه في الخروج من هذا المستنقع.

- ماذا تحب أن تفعل بهذا الشأن؟

- أن أذهب إليها معتذراً لأنني وضعتها في هذه الحالة الجهنمية. المشكلة الوحيدة هي أنها قالت إنها لن تكون موجودة.

كانت دموع ابنه الآن تنهمر بصوت مسموع.

- ربما بإمكانك أن تضع أفكارك في رسالة ترسلها إليها إلى الدير الليلة مع رسول.

- ربما لن تفتحها.

لكن فنسنت لاحظ أن ابنه لم يرفض هذا الاقتراح. بينما قالت مونيك والألم يخرجها من الغرفة: «إذا كنت تقول هذا عن هالي، فهذا يعني أنك لا تعرفها».

هناك درجات من الألم يمكن لفنسنت أن يقول بثقة تامة إنه جربها بأجمعها.

٩ - حكم القدر

- هل لديك مكان تذهبين إليه، يا هالي؟

- نعم، أيتها الأم المقدسة. صديقتي في سان دييغو ستستضيفني حتى أجد شقة. وأرجو أن يكون ثمة وقت كافٍ أجد فيه وظيفة للتعليم في المدارس الرسمية قبل الخريف.

ابتسمت الأم ماري كلير لهالي: «بعض النساء يؤدين القسم، ليجدن، بعد فوات الأوان، أن هناك شيئاً آخر يفضلن القيام به. وأنا مسرورة لأنك لست واحدة منهن. وأظنك شجاعة وحكيمة لأنك واجهت الحقيقة عن نفسك في الوقت المناسب. قد لا تبقين، بعد الآن، راهبة مكرّسة، لكنك، مثل الأخت كارلوتا، ستكونين دوماً قوة فعّالة في المجتمع أينما كنت. لا شك في ذلك أبداً».

- أرجو ذلك.

- متى موعد سفرك؟

- في الصباح.

- سنذكرك دوماً في صلواتنا.

- شكراً لكل شيء، أيتها الأم المقدسة.

ووقفت هالي لتغادر المكتب، وعند الباب تقدمت منها المسؤولة عن الراهبات الجدد وبيدها رسالتان مستعجلتان: «وصلت هاتان إلى الدير الآن، والاثنتان لك».

- شكراً.

حملتهما وخرجت في نزهة على الأقدام على ضفاف السين. ربما غابي

أرسلت إليها نقوداً أو شيئاً ما، وهو نوع من الكرم من صديقتها. كان من الصعب أن تصدق أنها، في خلال ثماني وأربعين ساعة، ستحمل ابنة غابي بين ذراعيها لأول مرة.

حالما وجدت هالي مقعداً خشبياً خالياً، جلست في شمس الظهيرة الدافئة ونظرت إلى أول مغلف، وعندما رأت أن الرسالة صادرة من «سانت جينز»، شهقت مدهوشة.

نظرة سريعة إلى الرسالة الثانية أنبأتها بأنها من «بولي»، وهي المدينة التي كانت ذهبت إليها مع فنسنت، هل هو المرسل؟ وأخذ قلبها يخفق من الألم.

قررت أن تترك هذه الرسالة إلى النهاية، ثم فتحت الأولى وسحبت الرسالة لتجدها مؤلفة من صفحة واحدة مكتوبة على الكمبيوتر من بول.

بكت من السعادة وهي تعلم أنه كان كاذباً بالنسبة إلى رغبته في الانتحار. وبعد أن اعتذر إلى حد بالغ عن كل شيء، تعلقت عيناها بآخر فقرة:

«أرجو أن تصلك هذه الرسالة قبل رحيلك إلى كاليفورنيا. أظن رجائي في عودتك إلى قصر رولاند هو أكثر مما استحق.

إذا منحتني فرصة أخرى، أعدك بأن تكون الأمور أفضل هذه المرة. تذكري فقط أن لديك أخاً أصغر هنا سيحبك على الدوام».

فهمست (بول)... وأغمضت عينها بشدّة... هوذا واحد من أدعيتها يُستجاب.

وفتحت المغلف الثاني بيد مرتجفة، وسرعان ما خاب أملها وهي ترى أن الرسالة من مونيك ومكتوبة باليد.

ما كان أغباها وهي تظنها من فنسنت! وهذا لا يعني أنها لا تريد رسالة من مونيك، فهالي تعبدها، ولكن...

«هالي...

لا يعلم أحد أنني أكتب إليك. لقد قرأت الآن رسالة بول وعرفت كذبته الفظيعة التي أخبر بها كل إنسان.

عليك أن تعودي! أنا لا أقول إنه سيقتل نفسه إذا لم تعودي، نحن الاثنتين أصبحنا واثقتين من أنه لن يفعل. لكنني أعرف بول أكثر من أي شخص آخر في العالم. إنه سيبقى حزيناً طوال حياته لما قاله وفعله لك إذا أنت لم تمنحيه الفرصة للتوبة. وقد أجريت حديثاً مع الأب أوليفييه عن كل شيء. إنه يقول إن من المهم جداً أن يساعد الشخص المتضرر بالإثم الشخص النادم على فعلته كلياً. ولا يمكن لبول أن يفعل هذا إذا لم تكوني موجودة. أتريدين أن تحملي ضميرك هذا العبء؟ لا أظن».

وضعت هالي الرسالة على المقعد وأخذت تحدق في الفضاء. إنها تتصور مونيك تعنفها وهي تضرب الأرض بقدمها. لقد ذهبت الفتاة إلى الأب أوليفييه. مزق هذا قلب هالي وهي تشعر بالحب والتوسل وراء تصرف مونيك هذا.

شيء ما حدّث هالي بأنها إذا لم تعد، ولو لعدة أيام، ربما ستتضرر مونيك أكثر من بول بكثير. وهذا لن يكون عدلاً بالنسبة إلى فنسنت الذي عانى من الآلام ما يكفيه لأكثر من حياة واحدة.

بعد أن قررت ما ستفعل، توجهت إلى الدير. إن عليها أن تتصل بغابي لتخبرها عن السبب الذي يجعلها تؤجل ذهابها إلى سان دييغو لفترة. وبعد ذلك ستلغي الحجز في الطائرة، ثم تقطع تذكرة قطار.

* * *

كانت الساعة العاشرة والنصف مساء عندما وصل القطار إلى محطة سانت جينز. وحوالى الحادية عشرة أنزلتها التاكسي عند كوخها خلف القصر. وكانت سيارتا التوأمين متوقفتين في الفناء. ولم تر أثراً لسيارة فنسنت.

لم يذكره أي من ولديه في رسالته، وقد يعني هذا لا شيء أو كل شيء. ومع ذلك حقيقة تأخره في الخارج مرة أخرى أقنعتها بأنه قابل امرأة.

ولماذا لا؟ فهذا أمر طبيعي للغاية. خصوصاً الآن بعد أن عرف أن ابنه ليس انتحارياً ولم يكن كذلك قط. وإذا كانت ردة فعلها تجاه اعتراف بول

لها أية قيمة، فإن ارتياع فنسنت بالغ دون شك.

دفعت هالي أجرة التاكسي وترجلت منها مع حقيبتها.

ما دام بول وضع مفتاحها في سيارته، كان عليها أن تسير إلى الكوخ التالي وتطلب من برنارد المفتاح الاحتياطي. وسلّمها هذا المفتاح دون أي سؤال عن غيابها، بل قال فقط إنه سيحضر لها مناشف نظيفة.

وجدت شقتها كما تركتها منذ ثلاث ليالٍ بالضبط، لم يدخلها أحد. وإذا فعلوا، فمحتويات الثلاجة لم تمس بعد، وأدهشها أن تشعر بأنها في بيتها الآن بينما لم تسكن هنا أكثر من يوم أو يومين.

ربما العودة كانت سارّة، لأن شهيتها عادت إليها. وعادت إلى المطبخ لتصنع لنفسها طبقاً من العجة. كانت الفاكهة التي اشترياها، هي وفنسنت، تبدو جيدة.

عندما قضمت قطعة من إجاصة وجدتها بالغة الحلاوة. وهاجمتها ذكريات لا تنسى لرحلة تسوّق أمضيا معاً.

هذا هو الجزء الصعب... أن تكون بقرب فنسنت مرة أخرى ويكون عليها أن تكبح مشاعرها نحوه. ولكن لأجل الولدين، ومونيك بالذات، عليها أن تفعل ذلك.

كانت أدخلت لتوّها طعامها إلى غرفة الطعام عندما سمعت قرعاً على بابها. وضعت ما بيدها وأسرعت إلى الردهة ظناً منها أنه برنارد.

شهقت وهي ترى فنسنت يقف بقامته الفارعة مرتدياً قميصاً أسود وبنطلوناً رمادياً. وبدا لها... بدا وسيماً إلى حد لا يصدّق حتى كاد يغمى عليها.

- هالي...

بدا مذهولاً تماماً لاكتشافه وجودها هنا. ويبدو أنها آخر شخص في العالم كان يتوقع رؤيته مرة أخرى. وأدركت أنه لم يكن يعلم، أكد لها ذلك بدعكه رقبته.

- رأيت ضوءاً فجئت للتفتيش عن مصدره.

بللت شفتيها بتوتر: «حسناً... لقد أوصلتني التاكسي لتوّها من المحطة. وبما أن الوقت متأخر، لم أشأ أن أزعج أحداً. وفكرت في الانتظار إلى الصباح لأبلغ أسرتك بعودتي».

أخذت عيناه السوداوان تحدّقان فيها بشغف وابتدأت ساقاها ترتجفان.

همس بصوت أجش: «إلى متى ستبقين هنا؟».

فأخذ قلبها يخفق بعنف: «لست واثقة».

كانت هذه هي الحقيقة. ولم يكن يعلم بأن كل الأجوبة متوقفة عليه هو.

توتر فمه الحازم المليء بالرجولة، حتى تحوّل إلى خط متوتر عنيد. فأظلمت لذلك كل ملامحه: «لماذا عدت إذن؟».

رأت لهجة التعنيف في صوته، فقالت: «ادخل وسأشرح لك كل شيء».

وما إن دخل حتى جاء برنارد بالمناشف فأخذها منه وأغلق خلفه الباب بقدمه.

ألقى بالمناشف إلى أقرب مقعد ثم وضع يديه على وركيه. إنه يريد جواباً، وهي لا تلومه خصوصاً بعد كل ما ما عانوه بسببها.

- دقيقة واحدة، سأريك شيئاً يوضح لك كل شيء.

واندفعت إلى غرفتها حيث أحضرت إليه الرسالتين. فوجدته عند عودتها يذرع الغرفة.

تصورته فهداً أسود رائعاً يدور في أنحاء قفصه باحثاً عن وسيلة للهرب.

وقف عندما رآها ونظر إليها، فناولته عمداً رسالة واحدة وهي تقول: «إقرأ رسالة بول أولاً».

أخذها منها وهو ينظر إليها بعينين ضيقتين: «أتعنين أن هناك أكثر من واحدة؟».

- نعم رسالة ابنتك.

جمد مكانه غير مصدق: «هل كتبت مونيك إليك أيضاً؟».

انتظرت بقلق ريثما قرأ الرسالتين. ولا بد أنه وصل في رسالة مونيك إلى الجزء المتعلق بهالي لأن رأسه اندفع فجأة إلى الخلف: «عندما قالت إبنتي إنها

ستذهب إلى الكنيسة لتشرح للأب أوليفيه أنك دُعيت إلى باريس لحالة طارئة، لم يكن لدي فكرة عن أن لديها برنامجاً آخر تسير فيه».

وبدت خيبة الأمل في عينيه: «لقد جاوزت مونيك الحد، يا هالي. أنا آسف لأنها وصلت إلى هذا الحد في استغلال شعورك بالذنب. يبدو أنني لا أعرفها جيداً كما كنت أظن».

فقالت متوسلة: «أرجوك أن لا تستاء منها، فقد احتاجت إلى مساعدة فذهبت إلى شخص تثق به».

فقال بلهجة الإحباط: «كان عليها أن تأتي إلي».

- وكيف تفعل ذلك بينما تعلم أنك ستمنعها من أن تزعجني؟

حدقا في بعضهما البعض طويلاً دون ابتسام. لم يستطع أن يجيبها لأنه علم أنها تقول الحقيقة.

- أريد أن أخبرك عن ابنتك، يا فنسنت. إنها خبيرة بالطبيعة البشرية وأمضت سنوات تدرس نفسيتك. ولا يفوتها سوى القليل جداً.

رقّت ملامحه وقال: «أخبريني عن ذلك».

ارتاحت وهي ترى استياءه خفّ عن ذي قبل، وقالت: «كان الأب أوليفييه على حق. عودتي إلى هنا للمكوث فترة ستثبت لبول أنني تلقيت رسالته والأهم من ذلك أنني صفحت عنه».

فحدّق إليها بنظرة ثاقبة: «هذا لن ينجح إذا عرف برسالة مونيك».

- سأتلف هذا البرهان إذن.

وأخذت الرسالتين من يده وسارت إلى المطبخ، وتناولت علبة ثقاب من على الرف.

- دعيني أحرقها بنفسي.

وأخذا ينظران إلى الورق يتلوّى في اللهب. هاتان الرسالتان الغاليتان اللتان حفرت كلماتهما في قلبها.

أزال آثار الورق المحترق وهم بأن يرحل. وإذ خافت أن يذهب قالت له متلعثمة. «هل أنت جائع؟ كنت طهيت لنفسي طبق عجة، كما ترى،

ويمكنني أن أطهي لك مثله إذا شئت».

وحبست أنفاسها، خائفة من النظر إليه. فأجاب: «سيكون هذا حسناً، هذا إذا سمحت لي بأن أصنعه بنفسي».

فقالت محاولة أن تبدو غير مبالية: «هذا جميل. سأحضر طبقي من غرفة الطعام وأعيد تسخينه».

عملا جنباً إلى جنب بانسجام. عشقت حماسته في العمل، فقد كسر في المقلاة نصف دزينة بيض.

- لا بد أنك جائع.

حتى ولو أنه خرج ليتعشى مع امرأة، فهو كمعظم الرجال لا يزال يشعر بالجوع. وقتلها التفكير في أنه قادم لتوه من تناول عشاء حميم مع إحداهن.

- أنا الآن كذلك.

ماذا كان يعني؟ أن عودتها قد أعادته إلى الحياة؟ لو أنه يعلم فقط أن انفرادها به بهذا الشكل يجعلها شاكرة لأنها حية.

- عندما تحضرين عشاءات عمل بالعدد الذي أحضره، تدركين أن الطعام هو آخر شيء تهتمين له. وإذا ما قرر بول ومونيك أن يصبحا شريكي سأخلي لهما عن العشاءات المتوجبة علي، بكل سرور.

وملأها جوابه بهجة: «سيكون من الممتع رؤية الطريق الذي سيختارانه في الحياة بعد تخرجهما من الكلية».

- فلنأمل بأن ما سيختارانه، مهما كان، سيجعلها سعيدين.

هل ما سمعته في صوته هو ندم؟. ونظرت إليه بفضول: «لو كنت ستبدأ من جديد، مَن كنت تفضل أن تكون؟».

- مضى وقت تمنيت فيه أن أكون طبيباً، لكن أبي لم يرض هذا.

وتصورته هالي طبيباً، رجلاً يكرّس نفسه لعمل الخير والعناية بالآخرين.

ألقى عليها نظرة فاحصة: «هل كنت دوماً تعلمين أنك تريدين أن تكوني معلمة؟».

وكانا الآن يأخذان طعامهما إلى المائدة فأجابت: «إلى حد كبير. وعلى كل حال، وجود الإجازات الصيفية وغيرها من السفرات المجانية شجّعتني على العمل في هذا المجال لكن قسم التعليم كان صعباً».

- أولادي يرونك لامعة الذكاء.

- التوائم أذكياء دوماً.. كما نقول في أميركا.

بدا الجد على وجهه: «لقد تحسنت لغتهما الإنكليزية مؤخراً بسبب وجودك قريبة منهما. وتأثيرك عليهما كان من أفضل الأشياء التي حدثت لهما. عندما أتذكر طريقة حديثي معك ذلك اليوم في شقتي...».

وأمسك بيدها يعتصرها: «اصفحي عني يا هالي».

فقالت بصوت مرتجف: «لقد ناقشنا هذا من قبل. لا شيء يتطلب الصفح».

تمنت لو يجذبها إلى أحضانه، لكنه، بدلاً من ذلك، ترك يدها وعاد إلى طعامه. ولم تعرف هالي ماذا تفعل.

- الآن يجب أن تعود الأمور كما كانت. لن يقتنع بول حتى يعود كل شيء إلى طبيعته، لماذا لا تأتين إلى مكتبي في التاسعة صباحاً، وسأمنحك العمل؟

تملكتها الحماسة لفكرة وجودها بقربه أثناء النهار حتى كادت تُسقط الشوكة من يدها.

- أظن ذلك سيكون للأفضل.

كل شيء يفعله يزيد من حبها له.

- عندما سأرى مونيك أثناء الإفطار، سأطلب منها أن تخبر الأب أوليفييه بأنك ستعلّمين في تلك الصفوف الإنكليزية.

- هذا حسن. عندما تتحدث إليها، هل لك أن تسألها، رجاءً، إن كان بإمكاني أن أستعمل إحدى دراجتيها للتنقل؟

نظر إليها متفحصاً: «إذا احتجت إلى مواصلات يمكنك دوماً أن تستعملي سيارتي».

- هذا كرم بالغ، لكنني بحاجة إلى التمرين. عندما كنت في طور المراهقة أحلم برحلات المغامرة الكبرى، كنت أتصور نفسي أجول في أنحاء فرنسا بالدراجة. ووجودي معكم في هذا القصر المحاط بكروم العنب الرائعة يُظهر كأن حلمي تحقق. ولا أريد أن أفقد منه ثانية واحدة.

وارتجف صوتها.

في الصمت الذي تلا، بدا وكأن تغيراً طرأ عليه، فقد توتر فكه بشكل ملحوظ: «أتعنين أن رغبتك في تعليم الفقراء في العالم الثالث تناقض رغبتك في العيش برفاه».

كان غضبه مذهلاً ما جعلها تجفل حذرة. كانت قررت أن تخبره بأنها لم تعد راهبة غير مكرّسة، وبالتالي لن تذهب إلى أميركا الجنوبية. وكانت تنتظر الوقت المناسب. وقد جاء أثناء الحديث بشكل طبيعي.

لم تكن هالي ساذجة، فهي تدرك أنه يراها جذابة، وعين الرجل لا تكذب. ولكن، حتى ولو أخرجنا بول من المعادلة، ربما هذا الانجذاب يعود إلى أنها تمثل له ثمرة محرمة.

ماذا لو ظن أنها تخلّت عن الحياة الدينية لأجله؟ عندما يعلم أن بإمكانه أن يقطفها عن الشجرة وينال كل ما يريد، ألا يفقد كل رغبة فيها؟

كان المفروض أن يكون في حياته امرأة أخرى لتصبح «السيدة رولاند» الثانية، لكن ذلك لم يحدث حتى الآن. ويبدو أنه راضٍ عن حياته كما هي الآن.

لو أنه كان أرسل إليها رسالة مع رسالتي ولديه... أو لو أنه حاول أن يتصل بها تليفونياً نيابة عن ولديه... لو أنه أظهر أي دليل على رغبته فيها، لما تملكتها هذه الشكوك الآن.

كانت مشاعرها من العنف إلى حد خافت معه، من إخباره بأنها لم تعد راهبة غير مكرّسة، خافت أن ينتهي الأمر بها إلى أن تعترف له بحبها. وإذا لم يكن يبادلها مشاعرها هذه، سيكون في ذلك دمارها.

اندفع واقفاً فجأة، مبتعداً عن المائدة، نظرت إليه مجفلة فتملكها

الذهول، بينما كان يقول لاهثاً: «المعذرة، يا هالي، ليس لي الحق في التحقيق في مستقبلك. يكفي أنك عدت لتساعدي التوأمين في تكيّفهم مع المجتمع».

نظرت إليه وهو يتخلل شعره بيده ثم يقول: «انتبهي! رسالة مونيك هي خطة يائسة لتبقيك في حياتها. إنها مشغوفة بك».

فقالت: «وأنا أيضاً مجنونة بها».

- لم أكن أظن قط أنني سأقول هذا، وهو أنني آمل أن تلتقي مونيك هذا الصيف بشاب يكون من الأهمية لديها بحيث يخفف وجوده من ألم فراقك حين ترحلين.

وصرخ قلبها! وهل ستشعر أنت أيضاً بالألم لرحيلي؟ أخبرني يا فنسنت!

- سأخرج الآن فقد تأخر الوقت، وأنا واثق من أنك متعبة بعد رحلة القطار هذه.

وسرعان ما أصبح، بخطواته الواسعة، عند الباب الأمامي، ومن ثم خرج مغلقاً الباب خلفه.

تلهفت، أكثر من أي شيء في العالم، إلى أن تناديه ليعود فتخبره بما في قلبها... لكنها لم تجرؤ.

كانت تنتظر دليلاً.

وربما سيأتي هذا بعد أيام قليلة.

* * *

- جدي. هل أنت مستيقظ؟

وكانت الغرفة مظلمة: «لا. أدخل».

كان جد فنسنت مستلقياً في سريره المزدوج يستمع إلى الراديو وكانت هذه عادته قبل النوم، بينما بوريغار الكلب نائم بجواره.

رفع الكلب رأسه، وأصدر أنيناً خفيفاً تعبيراً عن ترحيبه، ثم أنزل رأسه ثانياً.

أشعل العجوز المصباح، بينما جذب فنسنت كرسياً إلى جانبه.

وتفحصته عينان سوداوان حكيمتان: «منذ ثمانية عشر عاماً جئت إلى هذه الغرفة وأخبرتني بأن أرليت تريد أن تجهض الجنين وأنك تريد مني العون في منعها والليلة في وجهك ما ينبيء بأنك تريد العون مرة أخرى. ولكن، هذه المرة، بشأن هالي لين، إذا لم أكن مخطئاً».

أومأ فنسنت: «لقد عادت الليلة، إنما مؤقتاً».

بعد أن أخبر جده عن الرسالتين، قال الرجل العجوز: «لسوء الحظ ليس هناك محام في العالم يمنعها من أن تصبح راهبة».

فصرخ فنسنت بألم: «أتظنني لا أعلم هذا؟».

أمسكت الأصابع البارزة العقد والتي اشتغلت بالكروم عشرات السنين بذراعه: «اهدأ لحظة. قلت إن ليس هناك محامٍ، ولكن بإمكان رجل تحبه أن يفعل ذلك!».

غطى فنسنت وجهه بيديه، بينما تابع الجد يقول: «حب هالي لولديك أعادها إلى سانت جينز، فهل من المستحيل أن تعتقد أنها ربما تحبك أنت أيضاً؟».

- ولكن هل سيكون ذلك كافياً لإقناعها بالتخلي عن رسالتها الدينية؟ لا أستطيع أن أحتمل رفضها لي، إذا حدث.

- وما هو الفرق بين جهنم تلك، وجهنم التي تعيش فيها الآن؟ هل ستبقى هكذا مشلولاً بانحراف وإثم أرليت فتخسر أعظم فرصة للسعادة يتمناها أي رجل؟

- ليس هذا فقط

- أنت تتحدث عن بول.

فاندفع فنسنت واقفاً: «لقد أصلحنا كل ما بيننا ولكن إذا كانت لديه أية فكرة...».

- اذهب إليه إذن وأخبره بما تشعر به.

- لا يمكنني الإقدام على هذه المغامرة.

نظر إليه جده بحزن: «آسف لأنني لن أستطيع فعل شيء لأجلك».

- بل تستطيع . . . إبق حياً لأجلي.

وترك فنسنت جده وهبط إلى الردهة متجهاً إلى إحدى غرف الجلوس حيث يستضيف الزائرين الذين يأتون إلى القصر للبحث في الأعمال وكانت اتفيج تحرص على أن يكون المكتب مليئاً بكل أنواع الضيافة.

آخر مرة احتفل فيها فنسنت هي الليلة التي علم فيها أن أرليت لن تستطيع أن تسبب له ولولديه أي ضرر مرة أخرى فبلغ به الفرح أن أصبح لديه سبب للاحتفال.

أما الليلة فهو سيلجأ إلى ما يمحو ألمه لعدة ساعات.

صعد إلى غرفته متلهفاً إلى أن ينسى.

بعد عدّة دقائق دخل بول إلى غرفته فجأة، وكان ما يزال في ملابسه.

- ظننتك نائماً منذ وقت طويل.

- لم يكن الجد بحالة صحية حسنة بعد العشاء، فذهب إلى السرير مبكراً، وهذا أقلقني.

لم يعلم فنسنت بهذا لأنه كان يتعشى خارجاً في «سان إميليون»: «كنت معه لتوّي، فلم يقل كلمة بهذا الشأن».

كان بول يقف ويداه في جيبيه، فقال: «أعلم هذا، تبين أن ما شعر به مجرّد عسر هضم، وقد أعطته اتفيج دواء قبل أن تأتي أنت إلى البيت. ومنذ فترة قصيرة قررت أن أطمئن عليه مرة أخرى ثم أخرج الكلب في نزهة. وإذا بي أسمعكما تتحدثان».

التهب وجه فنسنت وعنقه.

- لماذا لم تدخل وتخبرنا بوجودك؟

- لأنني اكتشفت شيئاً كنت اشتبهت به منذ اللحظة التي أحضرت فيها هالي إلى المستشفى. من الواضح أنكما كنتما تكافحان انجذابكما إلى بعضكما البعض منذ البداية».

قال بول هذا وهو يهز رأسه متابعاً: «رأيت ذلك وشعرت به، لكنني لم أشأ أن أصدقه لأنني أنا الذي عرفت هالي أولاً».

لم يكن في العالم ما يكفي للتخفيف من الألم الذي تملك فنسنت: «بول . . .».

فقاطعه: «لا بأس، لأن هالي لم تعتبرني قط أكثر من أخ. وقد تصرفت كأبله لأجلها، لكن كل ذلك أصبح من الماضي الآن. هذا ما أريد أن أخبرك به. في الليلة التي جاء بها الفتيان لزيارتي في القصر، أخبرني لوك فيما بعد بأنه رآكما، أنت وهالي، منجذبين نحو بعضكما البعض. ولم يكن هذا بالخبر الجديد بالنسبة إلي بابا . . . إذا قررت هي أن لا تدخل الدير، أتمنى أن يكون مصيركما معاً. لماذا تظنني كتبت لها تلك الرسالة؟ كنت أكيداً أنها ستأتي في نفس الليلة إلى سانت جينز لأنها لا تستطيع الابتعاد عنك».

- وأنا أيضاً واثقة من أن هذا هو السبب يا بابا.

فأجفل فنسنت وهو يرى ابنته قد دخلت الغرفة. وتساءل كم من الوقت أمضته في التنصت عند الباب.

- لقد كتبت إلى هالي رسالة أنا أيضاً، ولكن ما كانت لتستلمها قبل هذا الصباح. كيف اعتبرتما أنها لن تنتظر يوماً آخر قبل أن تستقل القطار التالي؟ أنا نفسي أرى الأمر محيّراً، ولو كنت الأم المقدسة لأخبرت هالي أنها ليست قادرة على تأدية القسم ولن تكون كذلك أبداً.

كان الأمر محيّراً . . . محيّراً تماماً! وتساءل فنسنت عما إذا كان المهدئ الذي تناوله هو المسؤول عن كل هذه الخيالات والهلوسة التي جعلته يرى التوأمين وقد منحاه الإذن بتعقب هالي.

- أنتما متلائمان تماماً، يا أبي.

فقال بول: «وأنا موافق على هذا».

- هل الأمر كذلك إذن؟

ووضع فنسنت ذراعيه حول ولديه وسار معهما إلى الردهة: «إنني أحبكما وأقدّر كل ما قلتماه لكن الواقع يبقى أن هالي ليست حرة، ومهما بدا لنا الأمر، ربما هي لا تريد ذلك، وهذا لأسباب لا نعلم عنها شيئاً».

سمّرته مونيك بإحدى نظراتها الجريئة: «لكنك ستتحدث إليها وتعرف الأمر».

- في الوقت المناسب.

فهزت رأسها: «عليك أن تحدّد الوقت بنفسك».

- استمع إلى مونيك فهي تعرف ما تتحدث عنه.

نصحه بول بذلك وقد بدا هنا أنه الأب أكثر مما هو الابن، وهو يتابع: «فإذا أنت انتظرت، ربما ستستقل قطاراً آخر فتفقدها إلى الأبد».

بعد أن ذهب كل إلى سريره بقي فنسنت مستيقظاً. ذلك أن تحذير بول له وضع الخوف في نفسه.

١٠ - مجرد بداية...

كانت هالي مستيقظة منذ الخامسة صباحاً، منتظرة أن تحين الساعة التاسعة لتكون مع فنسنت.

فكرت في أن من المستحسن أن تسير إلى المدينة لترى الأب أوليفييه. وعندما يعلم الكاهن أنها تخلت عن خطتها في أن تصبح راهبة، فقد يتحفظ بالنسبة إلى تعليمها مجموعة من الفتيات اللغة الإنكليزية. وهي لا تلومه لو فعل هذا.

ومهما حدث، فلن تطول زيارتها. ستعود إلى التوأمين قبل أن تقدم طلباً للحصول على عمل.

في السادسة وخمس دقائق، غادرت الكوخ. إنها تعشق الصباح الباكر وكانت مسرورة بخروجها. وكان الجوّ دافئاً في الخارج، وهذا يعني أن النهار سينتهي حاراً. والآن هو الوقت المناسب لشيء من الرياضة.

صعقها جمال «وادي دوردونييه» مع كل خطوة خطتها... الأرض، العرائش، الحشائش الغزيرة. وكان الجوّ عابقاً برائحة الفاكهة.

ما أجمل أن يكون الإنسان حياً! كان فنسنت هو السبب في فرحها بالحياة، لقد جعل كل شيء في حياتها مثيراً ذا قيمة.

هل هي الصدفة أم المصير الذي أحضرها إلى فرنسا؟ أرادت أن تعتقد أنه الأخير. عندما ناضلت ضد الحضور إلى هنا، لم تكن تعلم أنها ستقابل رجلاً مثله؟ إنه أكبر من الحياة، ومع ذلك كان واقعياً عملياً بشكل رائع.

سيملأ حب فنسنت عواطفها بشكل لم يستطعه أحد من قبل. أن تكون زوجته، أن تنجب منه طفلاً...

www.liromancia.com

تملكتها هذه الأحلام حتى أنها لم تنتبه إلا وهي تصل إلى الكنيسة. عندما اقتربت من الباب الخارجي، رأت الكاهن قادماً نحوها من آخر الطريق وتحت إبطه حزمة وفي يده الأخرى «ترموس».

لوّح لها بيده: «صباح الخير».

بادلته التحية وأمسكت بالباب مفتوحاً ليدخل.

- أدخلي معي إلى مكتبي وشاركيني فطوري.

وبعد دقيقة كان يقدم إليها قطعة خبز وفنجان قهوة، وأوضح لها أن مديرة منزل كاهن «اوبرشيه» تصنع ألذ شراب في سانت جيتز.

نظرت إليه وهو يغمس الخبز في الشراب الساخن قبل أن يرفعه إلى فمه، ثم يستند إلى الخلف ليستمتع به: «والآن أخبريني ما هو الأمر الطارىء الذي جعلك تعودين إلى باريس».

بقي يمضغ خلال حديثها. الشيء الوحيد الذي لم تفض به إليه هو حبها لفنسنت. وعندما انتهت، حدّق الكاهن إليها لحظة قبل أن يبتسم قائلاً: «من الواضح أن لديك أشياء أخرى هامّة في حياتك تريدين أن تقومي بها. أحدها هو مساعدة مجموعتي الصغيرة في لغتهم الإنكليزية. سأنتظرك يوم الأربعاء عند الساعة السابعة مساء».

فلمعت عيناها: «شكراً يا أبي».

ونهضت واقفة: «والآن، الأفضل أن أعود إلى القصر. إنني أتدرب لأجل وظيفة جديدة ولا أريد أن أتأخر».

- سأسير معك إلى الخارج، الجوّ أجمل من أن يبقى الإنسان بين الجدران.

- أوافقك على هذا.

خرجا من الكنيسة في الوقت الذي شاهدا فيه الرجل الذي كانت تحلم به يتقدم نحوهما من موقف السيارات. كان حقاً أروع رجل عرفته! وخفق قلبها بعنف.

ناداه الكاهن محيياً: «مرحباً يا فنسنت. إذا كنت قادماً لأجل هالي فقد

أنهينا حديثنا وهي جاهزة للعودة معك».

رد فنسنت التحية للكاهن. ولكن كان هناك خطب ما، شعرت بذلك من تصلّب جسده. وأخذ يتفحصها بقسوة: «لقد أحضرت موتوسيكل مونيك إلى كوخك هذا الصباح. أدهشني أنك لم تكوني موجودة».

زمّت شفتيها: «آسفة. وشكراً لإزعاجك نفسك بإحضار الدراجة، سأستعملها من الآن فصاعداً».

ربّت الكاهن على ذراع فنسنت: «كانت هالي قلقة من أن لا أسمح لها بالتعليم بعد أن عادت عن قرارها بأن تكون راهبة مكرّسة. لكنني أخبرتها بأن الكنيسة ترحب دوماً بمواهبها».

وفجأة، سمعت هالي فنسنت ينطق باسمها بصوت منخفض. ولمعت عيناه حتى أصبحتا كشعلتين من اللهب.

لقد شاع الخبر الآن. وهي لا تستطيع استرداد الكلمات، كما أنها لا تريد ذلك.

- هل تركت عملك في البرنامج الخاص بالراهبات؟

كان صوته العميق غير ثابت. واكتشفت أنه انتظر وقتاً طويلاً ليسمع مثل هذه الكلمات. ربما طوال الوقت الذي كانت تريد فيه أن تنطق بها.

أومأت، خائفة من أن تتكلم قبل أن يصبحا وحدهما.

- فلنذهب إذاً.

تملكتها البهجة لهذه الكلمات الملحّة، فتمتمت تودع الكاهن ثم توجهت نحو السيارة. ولم تجرؤ أن تدع فنسنت يلمسها.

بعد ثوانٍ كان يجلس خلف عجلة القيادة. لم يقل شيئاً وبدلاً من ذلك، أمسك بيدها ورفعها إلى شفتيه.

أدار المحرك دون أن يترك يدها ثم خرج بالسيارة من المدينة. أدركت بالضبط إلى أين يأخذها. كان شوقها إليه بالغاً للغاية. وفي اللحظة التي توقفت فيها السيارة عند ضفة النهر، جذبها إلى ما بين ذراعيه هامساً باسمها بعنف وهو يحيط رأسها بيديه. وشعرت بأنفاسه الدافئة على وجهها،

فتملكتها مشاعر حلوة رقيقة.

– فنسنت...

كانت مشاعرهما تتناثر في أنحاء الكرم على ضفاف النهر... ولم يعد للزمن أي اعتبار.

إنها اللحظة التي خلقت لأجلها... وانتظرتها على الدوام.

عانقته متلهفة إلى أن تري هذا الرجل الساحر ما يعنيه لها.

أخذت تهمس له مرة بعد مرة: «أحبك... يا حبيبي... لا يمكنك أن تتصور مقدار حبي لك».

ما أروع أن تشعر بالحياة مرة أخرى، وأن تشعر بأنها محبوبة. كانت واثقة بأنها لن تشبع أبداً من حبه.

ودفن فنسنت وجهه في شعرها: «أنا أحبك يا هالي، أحبك بعمق وإلى الأبد. وبالنسبة إلي، فقد أديت لتوّك قسمك النهائي لي، وليس ثمة عودة عنه، إني بحاجة بالغة إليك».

واهتز صوته وهو يعترف لها بمدى حبه.

– أريد أن أكون ملكك، ولهذا عدت. لا حياة لي بدونك.

– هالي... هالي...

وأضاف: «لم أحلم قط بأنني سأصادف حب حياتي في اللحظة التي يقف فيها ولديّ على عتبة سن الرشد. لم يخطر لي قط أنه سيحدث ذلك الآن. أنظري إلي كيف أرتجف كتلميذ مدرسة. إنك أعدت إليّ الشعور بالصبا. لم أعد أعرف نفسي، ضميني مرة أخرى لأعلم أن هذا حقيقي».

أطاعته هالي بكل مشاعرها... فهو حياتها... إنه الفردوس وهي بين ذراعيه في هذا المكان الرائع الجمال.

قال: «إنني مستاء من ابني لشيء واحد وهو أنه لم يعرفنا إلى بعضنا البعض منذ أول يوم ذهبت لزيارتهما في باريس. وهكذا خسرنا أشهراً من الحب والحياة».

– أعلم هذا، فقد فكرت فيه أنا أيضاً وأفكر فيه الآن. أنت تعلم أننا

سنعاني من آلام أكثر عندما نخبر بول بأننا نحب بعضنا البعض.

ولم تفهم حين صدر عنه صوت ينمّ عن الفرح: «يا حياتي، كنت من اللهفة بحيث لم أتذكر ما يجب أن أخبرك به».

فرفعت وجهها إليه: «ما هو؟»

– لقد منحنا بول مباركته.

هزت رأسها غير مصدقة: «متى؟».

– الليلة الماضية.

وأخبرها عن حديثه مع ولديه بعد خروجه من الكوخ. وكان ارتياحهما دون حد. لكنها ما زالت متشككة: «هل رضي حقاً بذلك؟».

– أنا أتفهم الصدمة التي تشعرين بها فقد عانيت مثلها. لكنه بدا صادقاً. لقد نضج بول حقاً، فقد رأيت ضوءاً في عينيه فعلمت بأنه يريدنا أن نكون معاً.

– أوه... يا فنسنت... لم أشعر بمثل هذه السعادة في حياتي قط. أنا أحب ولديك وأحب أن أعيش معهما دوماً وهما يحبان أباهما. لقد جعلاني أحبهما. كل ما كان عليّ أن أفعله هو أن أتعرف إليك. أشعر بأنني غارقة في حبك.

تنهد مبتهجاً: «طوال الوقت الذي كنت تعنفيني فيه في شقتي، كنت أشعر بأن مشاعر عميقة تتكوّن في أعماقي. كنت تواجهينني بحقائق لا تقبل الرفض غير آبهة بغضبي. هزمتني وجذبتني إليك حتى شعرت بأن حياتي لن تعود أبداً كما كانت. ولو أن بول لم ينته في المستشفى، للحقتك تلك الليلة لأعتذر لك. وما كنت لأقبل أن تبتعدي عني قط. وأنا أخجل من القول إنني لم أشأ أن أبتعد عنك أنا أيضاً. ورغم الأزمة مع بول، عندما رأيتك تنتظرينني خارج متجر «تاتي»، أقسم بأن ساقيّ أخذتا ترتجفان من فرط التأثر».

فقالت وهي تحدق في عينيه: «لكن اللحظة الحقيقية كانت عندما دخلنا المزرعة وقفزت مونيك من السيارة وركضت لتستقبل الجد. فأخذت أحدث

نفسي بأن كل هذا يبدو وكأنني أعود إلى بيتي. فخرجت من السيارة وأخذت أسير بين الغرائش لأنها بدت لي مألوفة».

- كما كانت تبدو لي؟

- نعم.

- تملكني نفس الشعور وأنا أراك تتجهين نحو أسرتي فانحبست أنفاسي وأنا أتصورك موجودة هنا دوماً طوال حياتك. كانت لحظة فاصلة بالنسبة إليّ. . . ولداي وهذه المرأة الرائعة التي أحضراها إلى البيت. إذا كنت لم أعرف هذا، حينذاك، فأنا أعرفه الآن. إنها قوة أعظم منا جميعاً هي التي خططت للقائنا، يا هالي.

أومأت وهي تعود فتدفن وجهها في كتفه مرة أخرى، بينما عاد هو يقول وجسمه يرتجف بالمشاعر: «إننا بحاجة إليك يا حبيبتي، حتى الجد الذي كان لك تأثير على حياته بشكل لا يمكنك أن تتصوريه. إن عيد ميلاده هو الثاني من تموز. هل نجعل هذا التاريخ يوم عرسنا؟ سيكون هذا أعظم هدية يمكن أن نقدمها له. لقد ساعدني في حياتي التي كانت مليئة بالمخاوف. إنني أريد أن أقدم إليه الشيء الذي يوفر له السعادة والسلام في شيخوخته، وهو الزواج بك».

فصرخت: «ما أجمل ما تقوله! فكل ما أريده أنا، يا حبيبي أن أكون زوجتك. أريد أطفالك».

أجابها: «هذا ما كنت أفكر فيه».

فاعتدلت في جلستها: «فنسنت؟ هل أنا أستعجلك بشيء؟».

فانفجر ضاحكاً: «تستعجلينني؟ ألا تعرفين أنني رأيت في الخيال طفلين أشقرين يركضان خلفك بصعوبة في الكرم؟».

فأشرق وجهها: «طفلان؟».

- نعم. انجاب التوائم هو تقليد في أسرة أمي.

- أنت تمزح! أتساءل ماذا سيكون شعور بول ومونيك بالنسبة إلى ذلك؟

- هل نعود إلى البيت ونسألهما؟ لاشك أن إبنتي ستخبرنا بالضبط عما

تفكر فيه. وفي الواقع، سترغب في أن تخطط لحفلة الزفاف بنفسها. هل لديك مانع؟

قالت ضاحكة: «إنك أذكى من أن تسألني هذا السؤال؛ لا أستطيع أن أتصور شيئاً أروع من هذا. لقد كانت تخطط لكل نزهاتنا، وكل شيء كان يسير دون عائق. لقد خلقت للقيادة ومهما كان عملها في هذه الحياة، ستكون في مركز القيادة».

بدت على فمه الجميل ابتسامة كسولة: «هذه هي ابنتي! أما المعجزة حقاً فهي أنك تعرفينها وتفهمينها جيداً. إنها دقيقة جداً بالنسبة لاختيار الأشخاص الذين تدخلهم إلى حياتها».

- هل هذا أحد الأسباب التي أبقتك دون زواج؟

- لا، ثمة سبب واحد أبقاني دون زواج. . . كنت أنتظرك.

- فنسنت. . .

عندها سمعا صوت بوق سيارة، فنظر إلى الخلف: «لقد ابتدأنا نجذب اهتمام الناس هنا. فلنذهب إلى كوخك حيث نكون وحدنا. رغم حبي لهذا المكان، إلا أنه ليس المكان المناسب».

وبتأن بالغ إبتعدت عنه، وإذ لم تجد مرآة، نظرت في زجاج مقدمة السيارة لتنظر إلى نفسها وتحاول أن تصلح مظهرها، وإذا بها تشهق وهي ترى مقدار توهج وجهها.

تحرك فنسنت بالسيارة، لكنه لم يبعد نظره عنها: «في حال لم أخبرك بعد، أنا أراك رائعة الجمال، من الداخل والخارج».

أمسكت بيده ولم تتركها طوال رحلة العودة. وعندما دخلت سيارتهما من بوابة المزرعة كانت الساعة قد تجاوزت الثانية. ورغم أنهما أمضيا ساعات عند النهر، إلا أنها، مع فنسنت، بدت لها لحظة صغيرة. ومع ذلك هي مجرد بداية.

عندما اقتربا من القصر، رأت حركة في الفناء: «إنهما التوأمان. . . إنهما يركبان الموتوسيكل، يا لهما من مراهقين نشيطين! لابد أنهما أدركا

أنك ذهبت للبحث عني».

– لقد انتظرناهما فترة طويلة، أليس كذلك؟

والتفتت إلى فنسنت: «آسفة لذهابي إلى الكنيسة ما أفسد خطتك لأجلنا، نحن الإثنين».

وضع يده على يدها: «أنا لست آسفاً. لو أنك لم تذهبي لرؤية الكاهن، ربما كنت ما أزال أحاول أن أنتزع منك اعترافاً بحبك لي».

– ما كنت لتحتاج استعمال القوة. بعد وجودي معك الليلة الماضية، أصبحت أضعف من أن أستمر في صمودي طويلاً.

– جميل أن أسمع هذا لأنه يبدو وكأن التوأمين قد فرغ صبرهما ليعرفا ما إذا كان ثمة شيء هام حدث بيننا. دعينا نتصنع الخرس حتى نصبح في كوخك.

فهتفت: «فنسنت رولاند... أنت ماهر في الإغاظة!».

– ماذا تعنين؟

– ابنك من أمهر من عرفت في الإغاظة. وكنت قررت أنه لم يرث هذا منك... لكنني غيرت رأيي الآن.

فنظر إليها بمكر: «ما زال هناك أشياء عني لم تعرفيها بعد».

أرادت أن تتنفس فلم تستطع: «لا أستطيع الصبر، يا حبيبي».

– ولا أنا.

وتبعهما التوأمان إلى الكوخ.

وعندما ساعد فنسنت هالي في النزول من السيارة، رمقها بنظرة حب ذات معنى.

وهتفت مونيك وهي توقف دراجتها وتهرع إلى هالي: «هالي! كنت واثقة من أنك ستعودين!».

ذاب قلب هالي وهي تشعر بذراعي مونيك حولها. ونظر إليها بول بابتسامة متوترة.

وبعد أن تركت هالي أخته، احتضنته بشدة: «بعد قرأت رسالتك، كان

عليّ أن أعود. لا تقل بعد الآن إنك آسف، فقد أصبح سوء التفاهم خلفنا. إنك ومونيك أعز إنسانين لدي في العالم. إنني أحبكما».

– وأنا أحبك أيضاً يا هالي. أرجوك أن تقولي إنك ستبقين هنا حتى آخر الصيف.

وتملكته غصة. كان الرجاء في عينيه كل ما تحتاج إلى سماعه ولم يستطع النظر في عينيها. وقالت: «أنا باقية وقد قمت بالترتيبات اللازمة لذلك».

– هذا هائل.

وعندما ابتعد، رأت أن توتره قد زال.

وقف فنسنت ينظر إلى ولديه: «أنا مسرور أن هناك من اعتاد على الاستغناء عن هذه الدراجات. فقد استيقظت هالي عند الفجر، كعادتها، ولم تنتظر أية مواصلات. وقد وجدتها عند الكنيسة تسير في الأنحاء على قدميها».

– إنها نحلة مشغولة دوماً، يا بابا.

فابتسم الأب: «أنتما تبدوان كأميركيين حتى لم أعد أعرفكما، هل تغديتما؟».

هز بول رأسه: «كنا ننتظر أن نأكل معك».

أخرجت هالي المفتاح من حقيبتها: «أدخلوا إذن، وسأعدّ شيئاً للغداء. لقد أطعمني الأب أوليفيه من فطوره لكن ذلك كان منذ وقت طويل».

وهكذا دخل الجميع، وما لبثوا أن انشغلوا جميعاً في إعداد الغداء فوضع توأما فنسنت الفاكهة والشراب على المائدة بينما أخرجت هالي الكرواسون بالجبن من الثلاجة لتسخينها في الفرن.

وعندما ابتدأوا بتناول الطعام سأل فنسنت: «هل رأى أحد منكم الجد موريس اليوم؟».

فقال بول: «أنا تناولت الفطور معه، وهو في الكروم حالياً».

– هذا حسن. هذا يعني أنه بخير بعد عسر الهضم الذي أصابه ليلة أمس.

أوما بول وتابع الأب: «كنت أفكر في الجد وعيد مولده الثماني والثمانين الذي اقترب. أظن علينا أن نعد له شيئاً خاصاً هذه السنة».

أخذ قلب هالي يخفق بسرعة بينما نظرت مونيك إلى أبيها بحيرة: «لكننا دوماً نقيم حفلة جميلة لأجله».

- أعلم هذا، يا صغيرتي، لكنني هذه السنة أفكر في دعوة أصدقاء ورجال أعمال من أوروبا وأميركا، بالإضافة إلى المواطنين هنا.

بدا الاهتمام في عيني ابنته: «إنك تتكلم عن حفلة استقبال ضخمة!».

- نعم. هل تظن أن الجد سيحب هذا، يا بول؟

- بكل تأكيد. أحياناً، عندما يكون مكتئباً يتحدث عن الماضي حين كانت الجدة لا تزال حية، كانوا يقيمون هنا الحفلات الكبرى.

- هذا حسن، تقرر الأمر إذن! علينا أن نرسل الدعوات الأسبوع القادم، لأن الثاني من تموز سيطل علينا دون أن ندري.

فأخذت مونيك تفكر بصوت مرتفع: «سنرسل دعوات على ورق سميك أسمر منقوشاً عليه شعار القصر. أما النص فسيكون (نرسل إليكم دعوة من القلب للاحتفال معنا بعيد مولد «بيير موريس رولاند» الثامن والثمانين)».

وفكرت لحظة: «(من السابعة مساء حتى العاشرة مساء وذلك في الثاني من تموز في قصر رولاند - سانت جينز - فرنسا)».

نظر فنسنت إلى ابنته بعينين تومضان فرحاً، بينما بدا القلق والترقب على هالي.

- لدي بعض الأشياء فقط عليّ أن أضيفها، يا حلوتي، وإلا فهي كاملة.

فنظرت مونيك إليه بدهشة: «ماذا يمكن أن تضيف؟».

تحولت عيناه إلى هالي تغرقانها حباً.

- ذلك بحاجة إلى فاصلة أولاً بعد ذكر عيد مولد الجد، يتبعها (وزواج جان فنسنت رولاند بهالي لين من كاليفورنيا. لا هدايا، رجاءً).

ساد صمت جماعي ما لبث أن تبعه صرخة ثنائية:

- بابا!.

١١ - الحياة حلوة... معاً!

قصر رولاند.

٢ تموز.

بعد مرور سنتين.

* * *

سمعت هالي صخب ابنتها حتى قبل أن تطرق آن - ماري، ابنة عم مينو، باب غرفة النوم الرئيسية لتقول: «عفواً، يا هالي. لكن كاثرين ترفض النزول إلا بعد أن تحضر أمّها لتقبلها وتقول تصبحين على خير».

فأجابت وهي ترش عطراً: «سأحضر حالاً».

سيبدأ الضيوف بالقدوم في أية لحظة للاحتفال بعيد مولد الجد موريس التسعين، وفي نفس الوقت تحتفل مع فنسنت بعيد زواجهما الثاني.

كان فنسنت قد ارتدى ثيابه ونزل إلى الطابق الأسفل مع ماكس كالدر، زوج غابي، للجلوس مع الجد موريس في المكتب قبل حضور الضيوف.

كانت ترتدي ثوبها الأسود الكريب دي شين بكميه الفضفاضين وفتحة عنقه المستديرة. كان ثوباً بسيط الطراز، بلونه وطرازه. لكن مونيك التي ذهبت مع هالي منذ أيام للتسوّق، أصرت على أن هذا الثوب يبدو رائعاً، وأضافت: «إذا رآك بهذا الثوب سيصاب أبي بنوبة قلبية».

وكان هذا تعبيراً آخر من تلك التعبيرات الأميركية التي كانت مونيك التقطتها أثناء عملها دليلة سياحة حول القصر والمزرعة كل صيف. وجعلت هذه الكلمات وجه هالي يحمر خجلاً.

- لا أريده أن يصاب بنوبة قلبية. أريده أن يبقى حياً إلى الأبد، لأجلي!

ونظرت مونيك بدهاء: «أعرف هذا، كل إنسان يعرفه».

- هل أنا سيئة إلى ذلك الحد؟

فكان أن أجابت ابنة زوجها ضاحكة: «بل أسوأ! كلما رأيت أبي يشتد لمعان عينيك كحجرين كبيرين واسعين من الفيروز. لا زوج في كل فرنسا لديه مثل هذه الزوجة العاشقة. أخاف من أن يكون هذا قد جعله مغروراً».

ثم احتضنت هالي وهمست لها: «كان أبي بحاجة إلى حبك. لم أعلم قط أنه سيكون بهذه السعادة، وفي كل ليلة أشكر الله لأنه أرسلك».

- وهذا ما أشعر أنا به نحوك ونحو كل فرد في الأسرة. لكن أباك هو الذي سلب عقلي.

وقد حدث ذلك، في الواقع، في الوقت الذي تقابلا فيه في شقته في باريس. ومن ذلك الحين، أصبحت الحياة حلماً رائعاً تدعو الله كل ليلة أن لا يوقظها منه.

مرّت بالفرشاة على شعرها الأشقر، الذي جعلته أطول قليلاً مما كان. ثم أصبحت جاهزة.

ولحظة وصولها إلى الممشى، اندفعت كاثرين إليها تحيط عنقها بذراعيها الصغيرتين. وأطلقت آن ماري صيحة دهشة قبل أن تضحك الاثنتان.

أسرعت هالي إلى غرفة الأطفال، وابنتها ما زالت معلقة بعنقها، لترى ابنها جان - مارك الذي كان يصرخ احتجاجاً لتركه وحده.

التوأمان الأشقران البالغان من العمر عاماً واحداً، اللذان أطلق عليهما اسم والد فنسنت ووالدة هالي، قد شعرا بجو من الإثارة في المنزل طوال النهار، فكثرت متطلباتهما وشقاوتهما.

ومثل مونيك وبول، ورث الطفلان عيني أبيهما البنيتين الرائعتين. وذاب قلب هالي لرؤية جان مارك واقفاً في سريره يبكي ودموعه تسيل على خديه.

- لا بأس. ماما هنا.

وقبلت قمة رأسه ثم وضعت كاثرين في سريرها.

وبعد أن قبلتها تحوّلت إلى آن - ماري: «آسفة إذ أتركك بهذا الشكل. سأدير لهما لعبتهما الموسيقية، وهي تعزف أربعة ألحان مرة بعد مرة. إنهما سيهدأان بعد ذهابي. أطفئي النور فقط واجلسي بقربهما لفترة».

- لا تقلقي. الليلة هي لك لتستمتعي مع زوجك.

فاحتضنت آن - ماري: «شكراً لمعونتك. في مناسبة خاصة كهذه لا أدري ما كنا سنفعله بدونك».

في أوقات كهذه، كانت هالي تعجب كيف ربّى فنسنت أول توأمين له وحده. ورغم أن جده كان يساعده، فإن ذلك لم يكن سهلاً. وأكثر من أي وقت مضى، أدركت عظمة الرجل الذي تزوجته.

إنه عظيم ورائع من نواح كثيرة، وبدون نهاية. كما أن لا نهاية لحبها له.

بعد آخر نظرة ألقتها على ولديها الغاليين، أسرعت تهبط إلى الردهة، ثم إلى الجناح الذي وضعا فيه غابي وماكس هالي الصغيرة السمراء التي أحضراها معهما.

كان ماكس مجنوناً بزوجته ويعبد طفلته. ومنذ حضورهم إلى سانت جينز، وهو يسير في الأنحاء ضاحكاً على الدوام لأن غابي ستلد ولدهما الثاني في تشرين أول.

كانت تسمع هالي الصغيرة تبكي قبل أن تصل إلى جناحهم، وإذا بغابي، التي كانت تبدو مذهلة بثوبها الحريري الأسود تخرج وخوف بسيط على وجهها: «مسكينة مينو. لا أدري إذا كانت ستهدأ أم لا. سيبقى ماكس بقربها حتى يأتي فنسنت ليأخذه».

- لا تخافي لأن مينو رائعة مع الأطفال، وكذلك آن - ماري. إذا كان ثمة مشكلة ستأتي واحدة منهما لتخبرنا.

- الحق معك.

وتنفست غابي بارتياح وهي تنظر إلى هالي: «هل تذكرين ذلك الوقت في سان دييغو عندما كنت أعمل في قرية البنات؟».

- وكيف أنسى؟

وكانت المرأتان تسيران متأبطتين ذراعي بعضهما البعض نحو السلم الكبير.

- لم أكن رأيت من قبل شيئاً أجمل من مظهرك في ثوب الراهبة ذاك الذي كانت الأم المقدسة أعارتك إياه للتنكر. إنما الليلة عليّ أن أخبرك بأنك متألقة تماماً. كنت على صواب في اختيارك يا هالي.

وأخذتا تهبطان السلم: «أنا أعرف هذا، فأنا لم أندم أبداً. وكما أخبر الجد موريس مونيك: «الرجل والمرأة ينفذان مشيئة الله عندما ينشئان أسرة جيدة».

- إنه على حق.

- لو أنني لم أتعرف إلى فنسنت...

- لكنك تعرفت إليه تماماً كما تعرفت أنا إلى ماكس. أحياناً تخيفني سعادتي البالغة.

فقالت هالي بصوت مرتجف: «أنت لست الوحيدة في هذا الشعور».

اتجهتا نحو أصوات الرجال، وفي اللحظة التي دخلتا فيها المكتب، إذا بثلاثة رجال طوال القامة في ملابس السهرة السوداء، يلتفتن نحو المرأتين. وإذا بالحديث يتوقف.

ابتسم الجد لهالي: «عندما كانت زوجتي الجميلة حية، كان دخولها إلى غرفة ما، يدير رأس كل رجل إليها. فنسنت وماكس رجلان محظوظان تماماً. حتى الكلب بوريغار يظن هذا».

أضاف ذلك عندما أخذ الكلب يدور حول المرأتين.

- شكراً.

تمتمت بذلك وقد تخلخلت ساقاها للنظرة التي رمقها زوجها بها وهو يجذبها إليه قائلاً: «سواء كنت ترتدين البلوزة البيضاء والتنورة أو هذا الثوب الخلاّب، فأنت تحبسين أنفاسي. إنني أحبك اليوم أكثر من أي يوم مضى. لم أكن أظن قط أن هذا ممكن».

همس ذلك في شعرها فكادت تذوب: «أرجو أن تبقى على قولك هذا حين تصبح في سن الجد موريس».

أطلقها وأحاط وجهها المتوهج بيديه، وعيناه تشعان حباً: «ثمة شيء عليك أن تعرفيه، وهو أن حبي لك أبدي».

فأومأت: «نعم يا حبيبي».

وأحاطت عنقه بذراعيها، غافلة عن كل شخص آخر، وعانقته بقوة.

- ما الذي يحدث هنا؟

إزاء هذا الصوت الرجولي الرزين، سلخت هالي نفسها عن زوجها واستدارت إلى الباب: «بول!».

صرخت بذلك غير واعية حتى هذه اللحظة إلى أن الآخرين قد غادروا الغرفة.

دخل المكتب مع فتاة لم ترها هالي من قبل. لا بد أن هذه السمراء الجميلة فتاة عرفها في «بوردو». وبدت الفتاة خجلى قليلاً، وهذه، في رأي هالي، ميزة حلوة.

- بابا، هالي، قبل ابتداء الحفلة، أريدكما أن تتعرفا إلى بريجيت رامبو. تعارفنا في صف الكيمياء.

طوال الوقت الذي كان يقوم فيه بمهمة التعريف، كانت هي تنظر إليه بعينين متألقتين. وبدا بول سعيداً مترقباً. وأحست هالي بأن لديه شيئاً ليخبرهما به، وأحس فنسنت بذلك أيضاً. واشتدت ذراعه حول خصرها فجأة. ولكن قبل أن يتمكن بول من قول أي شيء آخر، دخلت مونيك إلى المكتب مع آخر صديق لها، برنارد. كان فنسنت وهالي قد تعرفا إليه في «بوردو».

تركته مونيك وركضت إلى أبيها تقبل خده: «ألا تظن أن خبر بول مثير؟».

شدّ فنسنت هالي إليه: «وما هو ذلك الخبر؟».

فبدا الجد على وجه بول: «لقد اتخذت قراري، فأنا سأدرس الطب، يا

أبي. وهذا الخريف سأدخل الصف الأول».

استطاعت هالي أن تتصور السعادة التي تملكت زوجها، بالإضافة إلى الشعور بالارتياح لأن بول لن يتزوج الآن. كما أدركت أن على فنسنت أن يبتهج لأن بول وضع الماضي خلفه حقاً وأخذ يتطلع إلى مستقبل رائع.

تقدم زوجها إلى ابنه يحتضنه: «هذا أجمل خبر تقدمه إليّ، يا ولدي».

وتقدمت مونيك إلى جانب هالي: «لديّ أنا بعض الأخبار الخاصة».

قالت هذا همساً لكن فنسنت سمعها: «آه، نعم؟»

فقالت ضاحكة: «نعم، يا بابا. في أيلول سأبدأ دراسة الأعمال وبهذا، يوماً ما، يمكنني أن أساعدك في إدارة الشركة».

عندما عانق ابنته، نظر إلى هالي بعينين مغرورقتين بالدموع، فأدركت أنه يتذكر تلك الأحداث العاصفة التي تلت تلك اللحظات المأساوية في شقته منذ سنتين. لم يكن ليتنبأ أحد بمثل هذه النتيجة.

وعلا صوت إتفيج: «انتباه. لوك وسوزيت هنا يسألان عنكما».

- نحن قادمان.

ترك التوأمان ومرافقاهما المكتب، لكن فنسنت عاد يأخذ هالي بين ذراعيه: «في الليلة التي أخذت فيها مونيك إلى المستشفى لترى بول، أخبرتني بأنك مكتملة الأوصاف، وأنني إذا عرفتك سأوافق على ذلك أنا أيضاً. وكانت على حق يا هالي، لأنك مكتملة الأوصاف. ما كنت لأدري ما أفعل بدونك».

- كنت أخبر غابي لتوّي بنفس الشيء عنك.

- تشبثي بي إذن ولا تتركيني أبداً.

- أبداً لن أتركك.

لكنها كانت قد تعهدت بذلك لقلبها في اليوم الذي استقلت فيه القطار إلى سانت جينز، كانت متلهفة للوصول إليه... للعودة إلى ذلك الفردوس الأرضي والرجل الذي كان مقدراً أن يكون مستقبلهما.